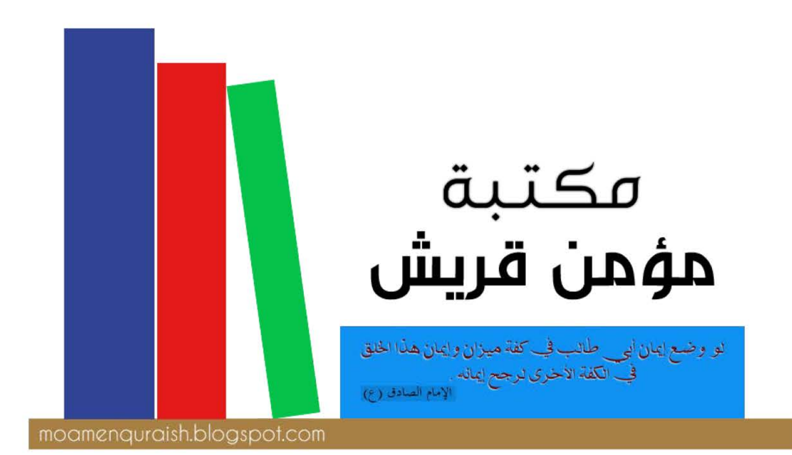
لقاء مع الابرار
«٤»



زين الدين الجبعي العاملي

تأليف: علي صادقي (غلامي)

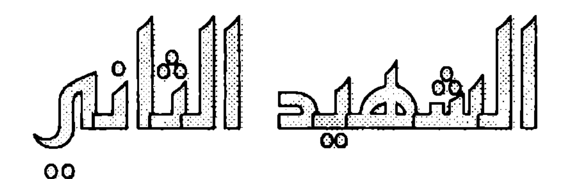
ترجمة و تحقيق: كمال السيّد


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمْ

لقاء مع الابرار

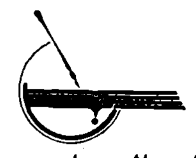
«٤»



زين الدين الجبعي العاملي

تأليف: علي صادقي (غلامي)

ترجمة و تحقيق: كمال السيّد



ايران ـ قم ـ شارع الشهداء ـ مؤسسة أنصاريان

ص . ب ١٨٧ ـ هاتف ٢١٧٤٤

اسم الكتاب :	الشهيد الثاني زين الدين الجبعي العاملي
المؤلف :	علي صادقي (غلامي)
المترجم :	كمال السيّد
صفّ الحروف :	محمّد افتخاري ـ قم تلفون ٦١٩٤٠٣
المطبعة :	صدر ـ قم
الطبعة الاولى :	١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م
الناشر :	مؤسسة أنصاريان
عدد المطبوع :	٣٠٠٠

المحتويات

الفصل الأوّل (البداية)

الفصل الثاني (مدرسة الأجيال)

الفصل الثالث (في طريق المجد)

الفصل الرابع (أشعة الغروب)

كلمة الناشر

عديدة هى الطلبات التي تلقّتها مؤسسة أنـصاريان سـواء عـبر الهاتف أم خلال رسائل القرّاء الكرام، وكلّها كانت تدور حول كتب تتحدث عن حياة العلماء من الذين كان لهم دور مشرق في عـالم الفكر و دنيا العلوم، وقد عكفت المؤسسة عـلىٰ دراسـة المـوضوع باهتمام، استجابةً للرغبات المخلصة المتعطشة للـثقافة الإسـلامية ورموزها.

واذ تقدم «أنصاريان» سلسلة ـ لقاء مع الأبرار ـ فإنّها تتمنىٰ أن تلقىٰ الرضا والقبول من لدن جميع القرّاء الكرام، والله الموفّق.

مؤسسة أنصاريان

تمهيد

يقوم الهجوم الثقافي على دعامتين؛ الأولى: تحقير الثقافة الأصلية، والثانية: التهويل للثقافة البديلة والغريبة في نفس الوقت. ومن خلال هذا الاستلاب الثقافي واحتقار الثقافة العريقة يشعر الشعب بحالة من الصغار تجاه الآخرين، غافلا عن ثقافته وما تحويه من الكنوز الثرّة، مستجدياً الغرباء، عارضاً حضارته وتمدّنه بثمن بخس.

ولقد عمل النظام البهلوي البائد على تكريس هذه السياسة فى التعامل مع الغرب كاله للحضارة والمدنية والفن بل وحتىٰ الأخلاق والدين، وطرح الشرق باعتباره مثالاً للوحشية، والتخلف، وفي أحسن الأحوال: العالم الثالث عالم الدول النامية؛ ولقد نجحت تلك

السياسات الشيطانية إلىٰ حدّما وأصبح الغرب فى نظر الكـثيرين ـ خاصة الشباب ـ يمثّل العالم الحرّ المـنافح عـن حـقوق الإنسـان والمدافع عن الديمقراطية والحرّية.

ولكن وكما يقال فإنّ الشمس لا تبقىٰ خلف الغـيوم إلىٰ الأبـد، وبدت الحقائق واضحة وبدأ عهد الصحوة الإسلامية.. العـهد الذي يتّسم بعودة الجيل الحاضر إلىٰ فطرته وقرآنه وعقيدته ورموزه.

وبالرغم من هذه الاشراقة التي تبشر بالخير الوفـير فـإنّ حـالة الاستلاب الفكري وفى كثير من المجالات الحساسة ماتزال تعاني ذيول التأثيرات الغربية.

فما تزال شهادات الغرب تخطف أبصارنا، ومايزال الدواء الذي لا يحمل اسماً غربياً طناناً، عديم التأثير والفائدة، ومايزال الكـثير من مظاهر الثقافة الغربية متغلغلاً بل ومتجذّراً فى تـربتنا، ومـايزال الغرب يختار لنا الزي الذى نلبسه، ويعيّن نوع المداليات التي تمنح كجوائز للفائزين، وننتظر منه حتىٰ الجوائز الأُدبية التي يسيل لهـا لعاب الكثيرين. ولكن هل من الصحيح أن نعدّ الغرب مثالاً؟ الغرب الذي ظهر علىٰ حقيقته بشعاراته الجوفاء.. وبدعاواه الفـارغة فـى الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان.

لماذا هذا الشعور بالنقص تجاه جلاّدي القـرن الخـامس عشـر

الهجري؟!

فالغرب الذي يمنح جوائزه «الأدبية» إلىٰ عديمي «الأدب» من أمثال سلمان رشدي، في الوقت الذي يصدّر أو امره بحرمان الطلبة المسلمين من الإشتراك فى أولمبياد الفيزياء، مازلنا ننظر إليه كمثال، بالرغم من تمييزه العنصري المقرف.

ان علىٰ العالم الاسلامي أن يسعىٰ بجدّ إلىٰ تشكيل «نظام دولي إسلامي» وأن يقطع كل آماله من شعارات الغرب في الديمقراطية والحرّية والدفاع عن حقوق الإنسان.

وهل هناك أمل ونحن نشهد ماجرىٰ ويجري في الأرض الإسلامية في «البوسنة والهرسك» و «الجزائر» و «فلسطين»؟ وليعلم كل من يهمه أمر المسلمين أنه لا ملجأ إلاّ في العودة إلىٰ أحضان القرآن وظلاله الوارفة.

و «لقاء مع الأبرار» خطوة في الطريق ـ طريق العودة الىٰ الذات من خلال الإشارة إلىٰ نجوم الفكر الإسلامي.. اولئك العمالقة الكبار الذين تضيع فى عوالمهم وآفاقهم الرحبة زعماء العقائد الأخرىٰ ومفكروها.

ان أشدّ مايرهب الغرب ويرعبه، هو عودة الأمّة الىٰ هوّيتها.. إلىٰ رموزها.. إلى اولئك الذين مهّدوا من خلال جهودهم المتظافرة

طريق الإسلام اللاحب.

ولقد أخذت «لقاء مع الأبرار» عهداً علىٰ استكشاف معالم سبعين كوكباً مضيئاً في سماء الفكر الإسلامي، وتقديمهم معالم منيرة في طريق البناء.. بناء الحضارة الإسلامية من جديد.

قم ـ مؤسسة باقر العلوم للبحوث

مقدمة المترجم

يحار المرء وهو يرىٰ مدىٰ التشابه الكبير لشـخصيتين، تـفصل بينهما مئة وخمسون عاماً، فمن يتأمّل في حياة الشيخ زين الديـن العاملي لابدّ وأنه سيشعر بأنّها امتداد لشخصية «محمد بـن مكـي» المستشهد سنة ٧٨٦ هـ، والذي عرف فيما بعد بالشهيد الأول.

فلا ريب اذن ان يتسنّم الشيخ زين الدين لقب الشهيد الثاني، فلقد عاشا ظروفاً مماثلة وعانىٰ كل منهما من المؤامرات.

وكانا في عصريهما الشخصية الفكرية الأولىٰ، واتسمت حياتهما بالأسفار والتنقّل بـين المـدن والحـواضـر الاسـلامية، مسكـونَين بهاجس وحيد هو طلب العلم، حتىٰ اصبح كل منهما موسوعة فـي الفكر والمعرفة، وخلّفا بعد ذلك تراثاً ضخماً يـنمّ عـن عـبقريتهما

ونبوغهما

ولد كلاهما في جبل عامل، وعاشا نفس المدّة من الزمن، وواجها نفس المصير الدامي، وكانا ضحية لمؤامرات الساسة واصحاب الطموح من ذوي النفوس المريضة والاخلاق الهابطة.

ويمضي التشابه حداً نجد فيه الشهيد الثاني يعكف علىٰ دراسة «اللمعة الدمشقية» في الفقه، وهي من تأليف الشهيد الأول ثم يشرحها تحت عنوان «الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية» فيحتل الاصل والشرح منزلة الصدارة في مناهج الدراسات الدينية رغم تعاقب القرون.

لقد حوكم الشهيد الأول في دمشق وأُعدم ثم صُلب جسده الطاهر أياماً وبعدها أُمر برجمه ثم أُحرق، فتحول الىٰ رماد تذروه الرياح؛ فيما يُساق الشهيد الثاني مخفوراً الىٰ القسطنطينية ثم بدا لجلاّديه قتله علىٰ شواطئ المتوسط، ثم يرمىٰ بجسده الىٰ البحر طعاماً للحيتان.

وكانت تصفيتهما علىٰ هذا النحو المؤسف لمجرّد اختلاف الرأي والتفاف الجماهير حولهما، مما أثار مخاوف الساسة آنذاك.

ويبقىٰ ان نشير اخيراً الىٰ أن مسلسل القتل والتصفيات الدموية مايزال يطال ذرّية الشهيدين، فلقد لقي الامام محمد باقر الصدر

مصرعه شهيداً علىٰ يد طاغية العراق عام ١٩٨٠ م، وتلاه استشهاد اخته آمنة الصدر التي عرفت ببنت الهدىٰ، وسبق ذلك اختفاء الامام موسى الصدر في لبنان عام ٩٧٨ في ظروف غامضة.

انها مسيرة الجراح بدأت خطاها من كربلاء الحسين من لحظة عاشوراء وماتزال تواصل الدرب نحو عصر السلام الاخضر.

كمال السيّد

الفصل الأوّل

البداية

الغضب المقدّس

روح تزخر بالغضب المقدّس، وقلب ينبض ايماناً وشجاعةً، ولسان قاطع كسيف بتّار، ورجل لايعرف غير الحق.

رفض الظلم، واستنكر الإسراف، وندّد بالتبذير والإنحراف، فتفجّر قلبه بركاناً ثائراً يقذف بحممه قصور المترفين الظالمين.

عرف الطريق واهتدىٰ السبيل فراح يخطو واثقاً بالله متوكلاً علىٰ ربّه لايخشىٰ لومة اللائمين ولا سطوة الحاكمين.

نظر اليه رسول الله ذات يوم واستكشف نفسه الابية وروحه الكبيرة فقال:

«ما اظلّت الخضراء ولا اقلّت الغبراء اصدق ذي لهجة من ابي ذر».

اجل انه ابوذر بطل الطريق الشائك.. طريق الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر.

عرف الحق فأمر به وادرك هـوية البـاطل فـنهىٰ عـنه، فـخافه الظالمون، وهابه الحاكمون، ارادوا ثنيه عن طريقه فعجزوا، عجزت الأموال الطائلة عن اغرائه، والسيوف والسياط وقـفت ذليـلة فـي حضرته.

طرق غلامٌ الباب عليه ذات يوم وقال له:

«تفضل يا صاحب رسول الله هذه هـدية الخـليفة اليك.. مـبلغ يكفيك مدّة حياتك». ورفـض أبـوذر الهـدية وألحّ الغـلام، وقـال مستعطفاً:

ـلقد وعودني بالحريّة... اقبلها يا أباذر. إنّ فيها عتقي.

ورفض أبوذر قبول هدايا الحاكمين وتمتم بثبات:

ـإن كان فيها عتقك فإنّ فيها رقّي.

اجل ايها الغلام الغرّ... اتطلب ذلك من أبي ذر؟ اتطلب منه الركون الىٰ الظالمين؟

ويدوي صوت ابي ذر داعياً الىٰ الحق مطالباً بتحقيق العدالة.

وتصدر الأوامر بإعتقاله ونفيه إلىٰ الشام بعيداً عن احبته ورفاق جـهاده مـحروماً مـن ربـوع الوحـي وعـبير النـبوة ودفء أهـل البيت(عليهم السلام).

وتشاء الأقدار أن يضع ابوذر قدميه في جبل عامل تلك البقعة الطيبة من ارض لبنان حيث التلال المتواضعة والوديان الفسيحة والمنبسطات المحدودة المدىٰ.

وهكذا قُدِّر لجبل عامل ان يبدأ فصلاً جديداً في تأريخه العريق، ويكتشفُ الناسُ هناك قبَساً من روح محمد(ص) وتتدفّق معاني الاسلام وقِيَم الرسالة من قلب صحابيِّه الكبير، وتبدأ الكلمات الثائرة رحلتها في عمق الأرض والتأريخ، فتشرق شمس الإسلام من بين الغيوم، فتغمر تلك الأرض بالنور والدفء والأمل.

وبدأ الزلزال الغفاري يهزّ قصور الحاكم الأموي بعنف، ويشعر معاوية بالذعر والرعب فيصدر امره بإعادة الصحابي الجليل الىٰ مركز الخلافة مع توصيات بإتخاذ اجراءات قاسية بحقه.

ويعود صاحب رسول الله الىٰ المدينة فلا يجد سوىٰ الوجوه المكفهرّة وسياط الجلادين، وتبدأ عجلة النفي بالدوران من جديد لينتهي به المطاف الىٰ الرَبذة اكثر بقاع الدنيا قسوة في مناخها، وخلوّها من آثار الحياة.

ويودِّع ابوذر الدنيا ملتحقاً بقافلة الاحرار والصدِّيقين، وتتحول كلماته في جبل عامل الىٰ بذور وبراعم تنمو وتزدهر وتضرب جذورها في اعماق الأرض والتأريخ والحضارة.

وتبدأ جبل عامل دورها الفاعل في الحياة، فراحت تقدم للبشرية العلماءَ والأدباء والمفكرين علىٰ مرّ العصور.

ومن بين ابرز اولئك العلماء الذين انجبتهم تلك الأرض المعطاء هو العالم الكبير زين الدين الجبعي العامليّ الّذي عُرف فيما بعد بالشهيد الثاني[١].

اسرته

يعدّ زين الدين بن علي بن احمد العاملي من كبار العلماء والفقهاء، وكانت شخصيته متعددة المواهب، فقد برز في ميدان الأدب والطب.

وقد نشأ الشهيد في اسرة عريقة لها مكانتها الإجتماعية والعلمية، وكان والده «نور الدين علي» من افاضل العلماء وكذا جدّاه «جمال الدين» و «التقي» وجده الأكبر «الشيخ صالح»؛ ومن هنا عرفت أسرته بـ«سلسلة الذهب». ويُعدّ ابنه الوحيد «الشيخ حسن» من كبار

---

١ ـ الشهيد الأوّل هو العالم «محمد بن مكي العاملي» استشهد عام ٧٨٦ هـ. بعد محاكمة صورية ظالمة ـ المترجم.

علماء الامامية، له كتاب «المعالم»[١] في اصول الفقه.

اما حفيده من ابنته «السيد محمد علي العاملي» فيعدّ هو الآخر من كبار المحققين الشيعة، له كتاب «المدارك»[٢] في الفقه.

واليه تنتسب شخصيات علمية لها اثرها ودورها الكبير في الحياة الفكرية والإجتماعية كالإمام موسى الصدر[٣] رئيس المجلس الشيعي الأعلىٰ في لبنان، والشيهد «محمد باقر الصدر»[٤] واخته الشهيدة «آمنة الصدر» المعروفة بـ«بنت الهدىٰ».

الميلاد

في الثالث عشر من شهر شوّال عام ٩١١ هـ. وفي «جبع» احدىٰ قرىٰ الجنوب اللبناني اشرق كوكب مضيء من بيت «نور الدين علي» واطلّ علىٰ الدنيا بوجه صبيح مشرق غمر قلب والديه بالدفء

---

١ ـ ما يزال الكتاب يحتل منزلة مرموقة في المناهج الدراسية للحوزات العلمية رغم مرور عدة قرون علىٰ تأليفه.

٢ ـ من الكتب الفقهية المشهورة لدىٰ الشيعة.

٣ ـ اختفى سنة ١٩٧٨ م في ظروف غامضة ومايزال مصيره مجهولاً ـ المترجم.

٤ ـ لقي مصرعه علىٰ يد طاغية العراق صدام ١٩٨٠ م ـ المترجم.

والأمل فمنحاه اسم «زين الدين». ولم تمضِ الأيام حتىٰ لاحت فيه ملامح الذكاء والنبوغ.

ونشأ الصبيُّ في بيت طاهر مُفعَم بالتقوىٰ والإيمان والتواضع، ختَم القرآن الكريم وهو لم يبلغ التاسعة مَن عمره.

دراسته

انصرف الشهيد الىٰ دراسة فنون الأدب العربي والفقه في تلك السنّ المبكرة وكان استاذه الأوّل والده وهو من كبار علماء جبل عامل في عصره، فقد قرأ عليه كتاب «المختصر النافع» و «اللمعة الدمشقية» التي كتب الشهيد حولها فيما بعد شرحه الشهير المعروف بالروضة البهية اضافةً الىٰ كتب الأدب المختلفة.

ويكفي والده فخراً انه ربىٰ الشهيد تربيه وضعته في طريق العبقرية والنبوغ، وقد استمرت دراسته تلك حتىٰ سنة ٩٢٥ هـ. حيث توفي والده وهو لما يبلغ الرابعة عشرة من عمره.

ولم يتوقف عند هول الصدمة ومرارة اليتم ولم تتخاذل روحه الوثّابة عن طلب العلم، شأنه في ذلك شأن العباقرة من الرجال الأفذاذ الذين تصنعهم الحوادث وتصقل مواهبهم الأيام.

نحو قرية ميس

وهكذا شدّ زين الدين التلميذ الناشئ رحاله متوجهاً الىٰ قرية «ميس» في جبل عامل، بعد أن سمع بأنَّ فيها عالماً كبيراً هو الشيخ «علي بن عبد العالي» الذي قرأ عليه كتاب «شرائع الإسلام» للمحقق الحلي و«ارشاد الأذهان» للعلامة الحلّي و«القواعد» للشهيد الأوّل محمد بن مكي، وكلّها من الكتب الفقهية العالية.

وقد امتدّت فترة اقامة الشهيد الثاني في ميس حتىٰ عام ٩٣٣ هـ. ولعلّ ما شجّع علىٰ اقامته ثمانية اعوام متواصلة هو ان استاذه كان زوجاً لخالته التي كانت تحنو عليه وترعاه طوال تلك المدّة.

زواجه

بلغ الشهيد من العمر اثنتين وعشرين سنة وهو مايزال يواصل دراسته بجد ونشاط، يعبّ من العلوم وينهل من ينابيعها الصافية.

ويشعر الشهيد أنه قد آن الأوان لأن يكمل نصف دينه ويبدأ حياة جديدة.. حياة مشتركة مع فتاة احلامه. وهل هناك افضل من ابنة خالته الحنون وابنة استاذه الكريم.

ووجد الشهيد سكنه الموعود[١] لدىٰ تلك الفتاة المؤمنة التي تحمل في شخصيتها كل ملامح القرية الطيبة من البساطة والقناعة والصفاء.

الىٰ كرك نوح

لم تمضِ علىٰ زواج زين الدين واقترانه بابنة خالته سوىٰ مدّة وجيزة حتىٰ خامرت الأسرة الجديدة فكرة النزوح الىٰ قرية أخرىٰ هي «كرك نوح»[٢].

فشدّ الطالب الرحال اليها بعد ان اخذ نصيباً وافراً من الفقه والعلوم الأخرىٰ.

وفي «كرك نوح» حضر دروس السيد بدر الدين حسن الأعرجي في الأدب والفقه والفلسفة والكلام والأصول، اذ قرأ عليه «القواعد» لابن ميثم البحراني في علم الكلام وكتابي «التهذيب» و «العمدة الجلية» في اصول الفقه اضافة الىٰ كتاب «الكافية» في علم النحو.

---

١ ـ اشارة الىٰ الآية الكريمة «ومن آياته أن خلق لكم من انفسكم ازواجاً لتسكنوا اليها» سورة الروم الآية ٢١.

٢ ـ بالقرب من بعلبك جاء اسمها لوقوعها على مقربة من مقبرة «نوح النبي».

ولم تمضِ سوىٰ سبعة أشهر حتىٰ فُجع الطالب برحيل استاذه عن الدنيا، وتذكّر رحيل والده من قبل فشدّه الحنين الىٰ «جبع» مسقط رأسه.

العودة الىٰ الوطن

وفي شهر جمادى الثانية من سنة ٩٣٤ غادر زين الدين «كرك نوح» متوجهاً صوب «جـبع» حـيث مكث فـيها حـتىٰ عـام ٩٣٧ انصرف خلالها الى المطالعة والإرشاد وقضاء حوائج الناس فارتفع ذكره وكثر الثناء عليه.

في دمشق

في عام ٩٣٧ هـ. هاجر الشهيد الىٰ دمشق حاضرة الشام، وكان عمره يومذاك سـتة وعشـرين سـنة يشـدّه الىٰ ذلك طـلب العـلم وتحصيل المعرفة فاقام هناك سنة واحـدة حـضر خـلالها بـحوث المحقق الفيلسوف «شمس الدين محمد بن مكي» فدرس عنده في الطبّ «شرح الموجز» و «غاية القصد في معرفة الفصد» وهما مـن مؤلفات استاذه، كما درس في علم الهيئة كتاب «فصول الفرغاني» وفي الفلسفة «حكمة الاشراق» للسهروردي كما درس عند الشيخ

«احمد بن جابر» كتاب «الشاطبية» وهو في علم القراءة، فدرس قراءة نافع وابن كثير وابن عمرو وعاصم.

العودة الىٰ الوطن

ويعود الشهيد الىٰ «جبع» يشدّه الحنين الىٰ ذلك، ويمكث في قريته حتىٰ عام ٩٤١.

وقضىٰ تلك المدة في المطالعة والتحقيق والتدريس وارشاد الناس.

دمشق مرّة أخرىٰ

وفي مطلع عام ٩٤٢ عاد الشهيد الى دمشق مرّة أخرىٰ لاستئناف دراسته هناك، وفي هذه الفترة اتصل بشخصيات عديدة من مختلف المذاهب الإسلامية للاطلاع على الاتجاهات الفكرية، فالتقىٰ العالم الدمشقي الشيخ «شمس الدين بن طولون» وقرأ عليه اجزاء من «صحيح البخاري»، و «صحيح مسلم» وقد اجازه «ابن طولون» في روايتهما معاً.

وفي هذه الفترة ظهر تلميذه «ابن العودي» الّذي رافقه مدّة طويلة.

في بلاد الأهرام

وفي الخامس عشر من شهر ربيع الأوّل من سنة ٩٤٢ هـ. غادر الشهيد الثاني دمشق[١] متوجهاً صوب مصر لاثراء ثقافته الدينية والعيش في اجواء فكرية جديدة.

ولقد كانت مصر حينذاك من المراكز الفكرية الكبرىٰ، ومن هنا سعىٰ الشهيد فور وصوله الىٰ الاتصال باصحاب المذاهب المختلفة وراح يدرس عن كثب اتجاهاتها في التفكير من اجل الالمام بمضمونها العقلي والوقوف علىٰ محتواها العلمي.

ولقد كان للشهيد حضور فاعل في مختلف حلقات الدروس التي كانت تعقد هنا وهناك في المساجد والمدارس، وقرأ علىٰ كثير من اساتذة الفقه والتفسير والحديث، يذكر الشهيد منهم:

«الشيخ شهاب الدين احمد الرملي الشافعي» قرأت عليه «منهاج النووي» في الفقه و«مختصر الأصول» مع

---

١ ـ تبرع «الحاج شمس الدين محمد بن هلال» بتغطية نفقات رحلته الىٰ مصر، جدير بالذكر بأن هذا الرجل الكريم الذي لم تذكر كتب التاريخ شيئاً عن حياته كان قد اجرىٰ للشهيد راتباً خاصّاً اثناء دراسته في دمشق، وقد وُجد قتيلا فيما بعد في منزله مع زوجته وولديه وكان احدهما رضيعاً في المهد وذلك سنة ٩٥٢ هـ. في ظروف غامضة ـ المترجم.

مطالعة حواشيه «السعدية» و «الشريفية» وسمعت عليه كتباً كثيرة في الفنون العربية والعقلية وغيرها، فمنها «شرح التلخيص» للمختصر في المعاني والبيان لملا سعد الدين ومنها «شرح التصريف العربي» ومنها شرح الشيخ المذكور إمام الحرمين الجويني في اصول الفقه، ومنها «شرح جمع الجوامع» و«الحلّي» في اصول الفقه و «توضيح» ابن هشام في النحو، وغير ذلك مما يطول ذكره، واجازني إجازة عامة بما يجوز له روايته سنة ٩٤٣هـ.

ومنهم الملاّ حسين الجرجاني قرأنا عليه جملة من «شرح التجريد» للملا علي القوشجي مع «حاشية ملا جلال الدين الدواني» و «شرح أشكال التأسيس» في الهندسة لقاضي زاده الروحي و«شرح الجغميني» في الهيئة له.

ومنهم «الملا محمد الاسترابادي» قرأنا عليه جملة من «المطول» مع حاشية السيد شريف و «شرح الكافية».

ومنهم «الملاّ محمد علي الگيلاني» سمعنا عليه جملة من المعاني والمنطق.

ومنهم «الشيخ شهاب الدين ابن النجار الحنبلي» قـرأت عليه جميع «شرح الشافية» وجميع «شرح الخزرجية» في العروض والقافية للشيخ زكريا الأنصاري، وسمعت عليه كتباً كثيرة في الفنون والحديث منها الصحيحان، واجازني جميع ماسمعت وقرأت و جميع مايجوز له روايـته فـي السنة المذكورة.

ومنهم «الشيخ ابو الحسن البكري» سمعت عليه جملة من الكتب في الفقه والتفسير وبعض شرحه علىٰ المنهاج.

ومنهم «الشيخ زين الدين الجرمي المالكي» قرأت عليه «ألفية بن مالك».

ومنهم الشيخ المحقق ناصر الدين الملقاني المالكي محقق العصر وفاضل تلك البلدة لم أر بالديار المصرية افـضل منه في العلوم العقلية والعربية سمعت عليه «البيضاوي في التفسير» وغيره من الفنون.

ومنهم الشيخ ناصر الدين الطبلاوي الشافعي قرأت عليه القرآن «بقراءة ابن عمرو» ورسالة في القراءة من تأليفه.

ومنهم «الشيخ شمس الدين محمد بن ابي النحاس» قرأت

عليه «الشاطبية في القراءة والقرآن العزيز للائمة السبعة»
وشرعت ثانياً أقرأ عليه العشرة ولم اكمل الختم بها.

يقول ابن العودي[1] معلّقاً:

«كثيراً ماكان ينعت (الشهيد) هذا الشيخ بالصلاح وحسن الأخلاق والتواضع وكان فضلاء مصر يترددون إليه للقراءة في فنون القرآن العزيز لبروزه فيها، وكان هذا الفن نصب عينيه، حتىٰ أن الناس كانوا يقرأون عليه وهو مشتغل بالصنعة لا يرمي المطرقة من يده، الاّ اذا جاء أحد من الفضلاء الكبار فيفرش له شيئاً ويجلس هو علىٰ الحصير».

كما يذكر الشهيد بعضهم قائلاً:

ومنهم الشيخ الفاضل الكامل «عبد الحميد السنهوري» قرأت عليه جملة صالحة من الفنون واجازني اجازة عامة.

و يعلّق ابن العودي قائلاً:

---

١ ـ احد تلامذة الشهيد وقد رافقه مدّة طويلة كتب خلالها جزءاً من حياته.

وهذا الشيخ ايضاً كان شيخنا قدس سرّه «الشهيد الثاني» كثير الثناء عليه بالجمع بين فضيلتي العلم والكرم، وانه كان في شهر رمضان لا يدعهم يفطرون الاّ عنده، حتىٰ انهم غابوا عنه ليلة فلما جاءوا بعدها تلطّف بهم كثيراً وقال:

ـ كل من فيِ البيت استوحش لكم البارحة حتىٰ لطيفة (اسم بنت صغيرة كانت له).

وكان له جارية اذا جاء احد يطلبهم للضيافة يقول: أَعلِمي سيدكِ بالخبر أن فلانا يطلب الجماعة ليكونوا عنده الليلة، تقول:

ـ هذا الخبر لا اعلمه به ولا أقول له عن ذلك.

ويستأنف الشهيد الثاني استعراض الشخصيات المصرية التي التقاها:

ومنهم الشيخ «شمس الدين محمد بن عبد القادر الفرض الشافعي»، قرأت عليه كتباً كثيرة في حساب الهند الغباري و«الياسمينة» وشرحها في علم الجبر والمقابلة، وسمعت عليه «شرح الوسيلة» واجازني عليه اجازة عامة.

وسمعت بالبلد المذكور من جملة متكثرة من المشائخ يطول الخطب بتفصيلهم، منهم: الشيخ عميرة، الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق والشيخ شهاب الدين البلقيني، والشيخ شمس الدين الديروطي وغيرهم»[١].

وهذه الوثيقة لَتدلّ دلالة واضحة علىٰ مدىٰ نشاط الشهيد وحرصه في الاطلاع على مختلف العلوم السائدة آنذاك، ومحاولة فهْم الاتجاهات الفكرية واساليب التدريس. وبالرغم من قصر المدّة التي امضاها الشهيد في الديار المصرية التي لم تتعدّ الثمانية عشرة شهراً الا ان الشهيد استثمرها يشكل يدعو الىٰ الدهشة والاعجاب، فقد أُتيح له أن يلمّ بالعديد من العلوم التي لا يمكن لغيره الالمام بها في مثل هذا الزمن القياسي.

نحو البيت العتيق

ويشعر الشاب بأنّه قد ارتوىٰ علماً ومعرفة، وتهفو روحه السامية الىٰ مكة مهبط الوحي ومهد الرسالة الخالدة، فينطلق شوقاً لزيارة البيت العتيق، وذلك في السابع عشر من شهر شوّال، عام ٩٤٣ هـ

---

١ ـ مقتطفات من رسالة ابن العودي في ترجمة حياة الشهيد.

مصطحباً معه اثنين من تلاميذه ومريديه.

وتجتاز القافلة الصغيرة الصحاري والفلوات باشواكها وكثبانها الرملية لتصل ارض مكة.. ارض ابراهيم واسماعيل وهاجر، ليشهد بعينيه أول بيت وضع للناس والمدينة التي شهدت ميلاد قمة الخلق البشري محمد (ص) وميلاد بطل الاسلام الخالد علي (ع)، وتتداعىٰ في ذهن الشاب صور حيّة لجهاد الرعيل الأوّل من المسلمين... ابو طالب عم الرسول وحاميه وخديجة وتضحياتها وياسر وصلابته وسمية أوّل شهيدة في تاريخ الاسلام وبلال و.....

وأدّىٰ الشهيد مناسك العمرة والحج ثم يمّم طرفه نحو المدينة المنوّرة.. الىٰ الأرض التي شهدت المعجزة الكبرىٰ ـ معجزة الاسلام وميلاد الأمّة الجديدة.

سلام علىٰ احمد في العالمين

وتنطلق القافلة الصغيرة باتجاه «يثرب» ويتمثل الشاب ذكريات الرحلة المحفوفة بالاخطار.. عندما قرر الرسول مغادرة مكة نحو يثرب، حيث بدأ التاريخ الهجري الذي غيّر وجه الدنيا وصحَّح المسار الانساني في العالم.

وتتدفّق ينابيع الحبّ فينطلق الشاب مترنِّماً:

سـلام و تسـليم عـلىٰ اشـرف الورى
ومن فـضله يـنبو عـن الحـدِّ والحـصر
ومـن قـد رقـىٰ السـبع الطـباق بـنعله
وعـوَّضه اللهُ البـراقَ عـن المـهر
وخـاطبه اللهُ العـليُ بـحبّه
شـفاهاً ولم يـحصل لعـبد ولا حـرِّ
عُـدولي عـن تـعداد فـضلك لايـق
يكـلّ لسـاني عـنه فـي النـظم والنـثر
وماذا يقول الناس فـي مـدح مـن أتت
مـدائـحه الغـرّاء فـي مـحكم الذكـر
سـعيت اليـه عـاجلاً سـعْيَ عـاجز
بـعبء ذنـوبي جـمّة أثـقلتْ ظـهري
ولكـنَّ ريـح الشـوق حـرّك هـمّتي
و روح الرّجا في ضعف نفسي مع الفقر
ومِـن عـادة العُـرب الكرام بـوفْدهم
اعـادته بـالخير والحـبْر والوفـرِ

وجـــادوا بـــلا وعـــد مـضىٰ لنـزيلهم
فكيف وقد أوعدتني الخير في مصر[١]
فــحقِّقْ رجـائى سـيّدي فـي زيـارتي
بنيل منائي والشـفاعة فـي حشـري[٢]

العودة الىٰ ارض الوطن

وبعد أن طاف الشهيد قسماً من بلاد الاسلام متنقلاً بين دمشـق والقاهرة ثم مكّة والمدينة في رحلة استغرقت عامين اذا به يشـدّه الحنين الىٰ (جبع) قريته الصغيرة الوادعة فـيشدّ الرحـال مـتوجهاً نحوها وذلك في الرابع عشر من صفر عام ٩٤٤ هـ.

وكان يوم وصوله القريه عيداً لأهلها حيث خرجت عـن بكـرة ابيها لاستقباله بحفاوة بالغة.

يقول ابن العودي:

وكان قدومه الىٰ البلاد كرحمة نازلة، أو غيوث هـاطلة، أحيا بعلومه نفوساً أماتَها الجهلُ، وازدحم عليه أولو العلم

---

١ ـ اشارة الىٰ رؤيا كان قد رآها في مصر.

٢ ـ روضات الجنات ج ٣ ص ٣٦٣.

والفضل، كأنَّ ابواب العلم كانت مقفّلة فـفتحت، وسـوقه كانت كاسدة فربحت، واشرقت أنواره علىٰ ظلمة الجهالة فاستنارت وابتهجت قلوب أهل المعارف وأضاءت، اشهر ما اجتهد في تحصيله منه واشاع، وظهر من فوائده مالم يطرق الأسماع، رتب الطلاب ترتيب الرجـال، واوضـح السبيل لمنْ طلب».

وهكذا فقد كان وصول الشهيد الىٰ القرية الصغيرة سبباً في انبعاث حركة ثقافية، فنشطت الحياة الفكرية، وقصده الطلاّب من مـختلف المدن والأقاليم، والتفّ حوله العلماء، ونهض الشهيد بمسؤوليته في ارشاد الناس وادارة الشؤون الدينية، فبنىٰ مسـجداً جـديداً وقـام ببعض المشاريع الخيرية العامّة.

الفصل الثاني

مدرسة الأجيال

شخصيته

تنهض الشخصية الانسـانيةعلىٰثـلاثة مـحاور. الأوّل: المـحور الأخلاقي حيث يتجسد سلوك الفرد في المجتمع واسلوب حياته من خلال ما يمتلكه الإنسان من قدرات اخـلاقية، والثـاني: المـحور العقلي وفيه يتعامل الإنسان مع الطـبيعة والفكـر بـما يـمتلكه مـن قدرات عقلية، وأخيراً: المحور الروحـي الذي تـنتظم مـن خـلاله العلاقة بين الإنسان وربّه حيث تتحدد طبيعة العلاقة عـلىٰ اسـاس مايمتلكه الإنسان من قدرات روحية.

ولقد برزت شخصية الشهيد في هذه المحاور جميعاً، فقامت علىٰ دعائم متوازنة جعلته محطّ اعجاب واحترام واجلال الناس في كلّ مكان.

فلقد بلغ الشهيد من الزهد والتقوىٰ والعلم والإخـلاص درجـة

جعلت بعض العظماء يعتقدون بأنّه قد شارف حدود العصمة.

وله في رسول الله اسوة

كان الشهيد الثاني يتمثل خطىٰ الرسولَ الأكرم (ص) في اخلاقه ومنطقه فلا غرو أن نرىٰ حبّه ينمو في القلوب الصافية.

فلقد كان في مجلسه بين اصحابه ومـريديه كـأحدهم، لا يـرىٰ لنفسه علىٰ غيره ميزة؛ يباشر عمله بنفسه ولا يحب أن يقوم احدهم بالنيابة عنه في انجاز بعض الأعمال المنزلية، يـذهب الىٰ السـوق بـنفسه ويشـتري مـايلزم عـائلته، يـنطلق الىٰ الصـحراء أو الغـابة للاحتطاب ويحمل حطبه على عاتقه، يفعل كل ذلك وهو في ذروة مجده العلمي والاجتماعي، وكان ينفر من كل اشكال التكبر وصور الرياء.

اجل لقد كان الشهيد (رضوان الله عـليه) خـرّيج مـدرسة أهـل البيت(عليهم السلام) الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا.

في نظر الآخرين

لفتت شخصية الشهيد الثاني نظر الكـثير مـن عـظماء التـاريخ، وحظي باجلال العلماء علىٰ مرّ العصور.

قال فيه الشيخ الحرّ العاملي صاحب (وسائل الشيعة):

أمره في الفقه والعلم والفضل والزهد والعبادة والورع والتحقيق والتبحر وجلالة القدر وعظم الشأن وجميع الفضائل والكمالات أشهر من ان يذكر، ومحاسنه وأوصافه الحميدة أكثر من أن تحصىٰ وتحصر، ومصنفاته مشهورة... وكان فقيهاً مجتهداً نحوياً حكيماً متكلماً قارئاً جامعاً لفنون العلوم، وهو أول من صنّف من الامامية في دراية الحديث[1]

وقال فيه السيد الخونساري في كتابه روضات الجنّات:

«اني لم آلف الىٰ هذا الزمان ـ سنة ١٢٦٠ هـ. ـ من العلماء الاجلّة! من يكون بجلالة قدره، وعظم شأنه، وارتفاع مكانه، وجودة فهمه، ومتانة عزمه، وحسن سليقته، واستواء طريقته، ونظام تحصيله، وكثرة اساتيذه[2]، وطرافة طبعه ولطافة صنعه، ومعنوية وتمامية تصنيفاته

---

١ ـ أمل الآمل ج ١ ص ٨٥.

٢ ـ اساتذته ـ المترجم.

وتأليفاته، بل كاد أن يكون في التخلق بأخلاق الله تعالىٰ تالياً للمعصوم»[١].

ويذكره العلامة الأمين صاحب الغدير بقوله:

«من اكبر حسنات الدهر، واغزر عيالم العلم، زين الدين والملّة وشيخ الفقهاء الاجلّة، مشارك في علوم مهمة من حكمة وكلام وفقه وأصول وشعر وادب وطبيعي ورياضي، وقد كفانا مؤنة التعريف به شهرته الطائلة في ذلك كله، فقد تركته أجلىٰ من اي تعريف، فما عسىٰ أن يقول فيه المتشدق ببيانه، وكل مايقوله دون اشواطه البعيدة وسيطه الطائر، فسلام عليه ما أسداه الىٰ امته من اياديه الواجبة، ونشره من علوم ناجعة»[٢]

واشاد به الشهيد مرتضىٰ المطهري[٣] في كتاب العلوم الإسلامية قائلاً:

---

١ ـ روضات الجنات ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ .

٢ ـ شهداء الفضيلة ص ١٣٢ .

٣ ـ من شخصيات الثورة الإسلامية في ايران اغتيل بعد انتصار الثورة ـ المترجم.

«الشيخ زين الدين المعروف بالشهيد الثاني، من عظماء الفقهاء الشيعة، رجل جامع للعلوم، من اهل جبل عامل، كان جدّه السادس (صالح) من تلامذة العلامة الحلّي ـ ولد سنة ٩١١ هـ. واستشهد سنة ٩٦٦ هـ. ـ قام برحلات واسفار عديدة والتقىٰ الكثير من الاساتذة في مصر ودمشق والحجاز وبيت المقدس والعراق واسطنبول، قطف من كل حقل ثمرة، بلغ عدد اساتذته من أهل السنة اثني عشر، ومن هنا كان رجلا جامعاً، فاضافة الىٰ الفقه والأصول، لقد كان له في الفلسفة والعرفان والطب والفلك باعاً، وكان علىٰ شأن كبير في الزهد والتقوىٰ، وقد ذكر بعض تلامذته في تسجيل سيرته أنه كان يحتطب ليلاً لاعالة اسرته ويجلس صباحاً للتدريس، قضىٰ مدّة في بعلبك يدرّس المذاهب الخمسة (الجعفري، الحنفي، الشافعي، المالكي، الحنبلي) وللشهيد مؤلفات عديدة في طليعتها «شرح اللمعة» للشهيد الأوّل وله ايضاً «مسالك الأفهام» وهو شرح لشرائع المحقق الحلّي، تتلمذ علىٰ يد المحقق الكركي (قبل قدوم الأخير الىٰ ايران) لم يزر

ايـران. نـجله (صـاحب المـعالم) مـن مشـاهير عـلماء الشيعة»[١].

ابن العودي

ويقول ابن العودي تلميذه ومريده المخلص والذي رافـقه مـدّة طويلة:

«حاز من خصال الكمال محاسنها ومآثرها، وتردىٰ مـن اصنافها بأنواع مفاخرها. كانت له نفس علية تـزهي بـها الجوانح والضـلوع وسـجية سـنية يـفوح مـنها الفـضل ويـضوع. كـان شـيخ الامـة وفـتاها، ومـبدأ الفـضائل ومنتهاها... لم يصرف لحظة من عمره الاّ فـي اكـتساب فـضيلة، ووزع اوقـاته عـلىٰ مـايعود نـفعه فـي اليـوم والليلة»[٢].

ولم ينس ابن العودي الذي بلغ اعجابه بـاستاذه حـدّاً كـبيراً ان يسجل بعض ملامحه وصفاته قائلاً:

---

١ ـ العلوم الاسلامية ص ٣٠٢.

٢ ـ رسالة ابن العودي ـ مخطوطة ـ

«كان ربعة من الرجال معتدل القامة، وفي آخر عمره كان الىٰ السمن أميل، بوجه صبيح مدور، وشعر سبط يميل الىٰ الشقرة، اسود العينين والحاجبين، ابيض اللون، عبل الذراعين والساقين، كأن اصابع يديه اقلام فضة، اذا نظر الناظر في وجهه وسمع لفظه العذب لم تسمح نفسه بمفارقته، وتسلّىٰ من كل شيء بمخاطبته، تملئ العيون من مهابته، وتبتهج القلوب لجلالته، وايم الله إنّه فوق ماوصفت، وقد اشتمل علىٰ خصال حميدة اكثر مما ذكرت»

ويضيف الىٰ ذلك انّه رآه ذات مساء وهو يسوق حماره المحمّل بالحطب الىٰ داره ثم يبكّر صباحاً للتدريس في المسجد ويقضي نهاره بين التحقيق والبحث والمطالعة، وبعد أدائه صلاة المغرب جماعة ينطلق لتفقّد بستان كروم له في اطراف المدينة.

ولقد سحرت شخصية الشهيد تلميذه ابن العودي فلازمه في حلّه وترحاله حتّىٰ أخريات حياته.

اساتذته

امتازت شخصية الشهيد بتعدد ابعادها وتنوّع مواهبها، وكان لرحلاته المختلفة واتصاله بعدد كبير من الاساتذة الاثر البالغ في شموليته وعمق شخصيته العلمية.

ولقد كان اقباله علىٰ دراسة العلوم المختلفة كاقبال الظامئ علىٰ شرب الماء من ينابيع صافية، ومن هنا فقد تيسر له الاطلاع علىٰ ثقافة عصره والتعمق فيها في مدّة وجيزة.

ويكفي الاطلاع علىٰ مؤلفاته التي تشكل دائره للمعارف أن يدرك المرء مدىٰ مابلغه الشهيد من الشمولية والعمق في اغلب علوم عصره.

ونشير هنا الىٰ بعض اساتذته.

١ ـ علي بن احمد العاملي المعروف بـ «ابن الحاجة» ابوه واستاذه الأوّل. درس الشهيد علىٰ يديه النحو وقسماً من مبادئ الأدب، كما درس عنده كتاب «النافع في مختصر الشرايع» اضافة الىٰ «اللمعة الدمشقية»

٢ ـ الشيخ علي بن عبد العالي الميسي، درس عنده الشهيد مدّة ثمانية اعوام وقرأ عليه كتاب «الشرائع» للمحقق الحلّي و «الارشاد» للعلاّمة الحلي و «القواعد» للشهيد الأوّل وكلّها في الفقه، وقد ألمحنا

فيما سبق أن أستاذه هذا هو زوج خالة الشهيد وقد زوّجه من ابنته فيما بعد.

٣ ـ السيد حسن الأعرجي، قرأ عليه الشهيد كلّاً من «القواعد» لابن ميثم البحراني في الكلام و «التهذيب» و «العمدة الجلية» في الأصول وكتاب «الكافية» في النحو.

٤ ـ شمس الدين محمد بن مكي الدمشقي، وقد درس الشهيد لديه «شرح الموجز النفيسي» و «غاية القصد في معرفة الفصد» وكلاهما في شؤون الطب، كما درس لديه «فصول الفرغاني» في الهيئة والفلك وقسماً من «حكمة الاشراق» للسهروردي و «صحيح البخاري» و «صحيح مسلم» وكلّها في الحديث.

كما درس الشهيد كتباً أخرىٰ علىٰ يد اساتذة مصريين هم:

٥ ـ شهاب الدين احمد الرملي، وقد درس عنده «المنهاج النووي» في الفقه و «مختصر الأصول» لابن حاجب و «شرح عقائد العضدي» و «شرح التلخيص» في معاني البيان و «شرح التصريف العربي» و «شرح جمع الجوامع» في اصول الفقه و «توضيح ابن هشام» في النحو و غيرها.

٦ ـ ملا حسين الجرجاني وقد درس الشهيد لديه كلاً من «شرح التجريد» لملاّ علي القوشجي، و «شرح الأشكال» في الهندسة

و«شرح الجغميني» لقاضي زاده الرومي.

٧ ـ شهاب الدين ابن النجار الحنبلي درس عنده «شرح الشافية» للجاربردي و «شرح الخزرجية» في علم العروض.

٨ ـ ناصر الدين الملقاني درس عنده «تَفسير البيضاوي»

٩ ـ ناصر الدين الطبلاوي درس لديه علم قراءة القرآن وقد قرأ عليه رسالة من تأليفه.

١٠ ـ محمد بن ابي النحاس قرأ الشهيد عليه «الشاطبية» في موضوع القراءة ايضا.

١١ ـ عبد الحميد السنهوري.

١٢ ـ محمد عبد القادر الشافعي درس عنده الشهيد كتباً في الرياضيات وكتاب «الياسمينة» في الجبر والمقابلة.

تلامذته

تتلمذ علىٰ الشهيد الكثيرون وقد اصبح بعضهم من كبار العلماء، ولقد كان الشهيد يتحرّق علىٰ نقل ما تعلمه من المعارف الىٰ اكبر عدد ممكن من طلاب العلم والفكر مؤمناً اعمق الإيمان بأن زكاة العلم تكمن في نشره. ومن ابرز تلامذته:

١ ـ السيد نور الدين علي العاملي الجبعي صاحب كتاب «مدارك

الأحكام» المعروف، وكان من خواصّ تلاميذه وصهره فيما بعد.

٢ ـ العالم المحقق السيد علي الحسيني العاملي الجزيني المعروف بـ «الصائغ» وهو مؤلف كتابي «شرح الشرايع» و «شرح الارشاد» للعلاّمة الحلّي.

٣ ـ الشيخ حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي وهو من كبار الفقهاء ـ والد الشيخ البهائي المعروف ـ وهو أوّل تلامذة الشهيد ممن رافقه في رحلته الىٰ مصر كما رافقه في سفره الىٰ اسطنبول ـ اسلامبول ـ ثم في زيارته للعتبات المقدسة في العراق، حيث مكث هناك فترة من الزمن زار بعدها ايران، وقد اجازه الشهيد الثاني[1] ويعدّ ابنه من ألمع نجوم الفكر الإسلامي في القرن الحادي عشر الهجري[2].

٤ ـ محمد بن حسين الملقب بـ «الحر العاملي المشغري» الجد الأكبر لصاحب «وسائل الشيعة».

٥ ـ واخيراً وليس آخراً بهاء الدين محمد بن علي العودي المعروف بـ «ابن العودي» وهو ابرز تلامذته ومريديه، وقد رافق

---

١ ـ مفاخر الإسلام لعلي الدواني ج ٤ ص ٤٧٥.

٢ ـ كشكول الشيخ البهائي ـ المقدمة ـ.

الشهيد مدّة تناهز السبعة عشرة عاما أي من عام ٩٤٥ وحتىٰ عام ٩٦٢ حيث سافر عندها الىٰ خراسان ولم يلتق استاذه بعد ذلك.

مدرسة الاجيال

لم يكن ما اشرنا اليه سوىٰ ابرز تلامذته من النابغين، ولكن هل انتهت مدرسة الشهيد برحيله عن الدنيا؟

فما تزال كتبه ومؤلفاته خالدة حتىٰ اليوم، وما برح طلاّب العلم والمعرفة يدرسون آثاره الكبرىٰ، فها هي كتبه تطبع علىٰ مدار الأيام وتعاقب السنين واختلاف العصور.

وهاهي بعض كتبه مثل «شرح اللعمة» و «المسالك» و «ارشاد الأذهان» و «روض الجنان» و «منية المريد» ماتزال ينابيع تتدفق علماً ومعرفة وفكرا.

فشرح اللمعة مايزال منهجاً اساسياً في الحوزات العلمية رغم مرور اربعة قرون علىٰ تأليفه.

ومن هنا أفلا يمكن القول أن الشهيد مايزال يلقي دروسه وما تزال مدرسته قائمة تخرِّج الاجيال تلو الاجيال من الفقهاء والعلماء؟

مؤلفاته

يقف المرء مشدوهاً أمام شخصية الشهيد، فبالرغم من حياته القصيرة نسبياً وظروفه المريرة الصعبة فقد تمكن أن يخلّف وراءه تراثاً ضخماً في الفكر والعلوم.

كان يعمل لينفق علىٰ اسرته، ويستقبل الناس بحرارة، ويجهد في قضاء حوائجهم، ويسافر من بلاد الىٰ بلاد، وقضىٰ جزءاً من حياته مطارداً خائفا، ومع كل ذلك ألّف مايقارب السبعين كتاباً في مختلف حقول العلم.

وهذه ظاهرة اثارت إعجاب ودهشة تلميذه ابن العودي، وهو يرىٰ حجم المشكلات التي ألمّت بالشهيد واختلاف الناس اليه واستقباله لهم ببالغ الحفاوة. ومن المفترض أن تستوعب هذه الأمور جُلّ وقته، فكيف تسنّىٰ له أن يترك وراءه كل هذه الآثار العظيمة!

وأمام مثل هذه الظاهرة لا يملك المرء سوىٰ أن يسلّم بعبقرية الشهيد التي تضعه في مصاف عباقرة التاريخ الخالدين.

وفيما يلي استعراض لمؤلفاته ورسائله

١ ـ «اجازاته لتلاميذه».

تعدّ الاجازات وثائق تخرج في وقتها، وقد اجاز الشهيد عدداً من تلامذته اجازات مختلفة بعضها مختصرة وأخرىٰ كبيرة كاجازته

للشيخ حسين عبد الصمد والد الشيخ البهائي، ويعود تاريخ الاجازة الىٰ عام ٩٤١ هـ[١]

٢ ـ «اسرار الصلاة».

٣ ـ «البداية في الدراية».

وهو يبحث في علم الحديث، فرغ من تأليفه ليلة الثلاثاء الخامس من ذي الحجة سنة ٩٥٩ هـ. وطبع مع شرحه في طهران عام ١٣١٠ هـ[٢]

٤ ـ «البداية في سبيل الهداية» وهو كتاب في العقائد الإسلامية.

٥ ـ «تمهيد القواعد الاصولية والعربية»[٣].

ويتضمن الكتاب مئة قاعدة في اصول الفقه، طبع في طهران سنة ١٢٧٢ هـ.

٦ ـ «التنبيهات العلنيّة في وظائف الصلاة القلبية».

وهو كتاب يبحث في الصلوات الواجبة والمستحبة واسرار الصلاة، ويذكر الشيخ آقا بزرك الطهراني ان الشهيد انتهىٰ من تأليفه

---

١ ـ الذريعة ج ١ ص ١٩٣ .

٢ ـ الذريعة ج ٣ ص ٥٨.

٣ ـ الذريعة ج ٤ ص ٤٣٣ .

الكتاب يوم السبت التاسع من ذي الحجة الحرام (يوم عرفه) عـام ٩٥١ هـ. طبع مراراً منها سنة ١٣٠٥ هـ.[١]

٧ ـ تحقيق الإيمان والإسلام.

٨ ـ جواب المسائل الخراسانية.

٩ ـ جواب المسائل الشامية.

١٠ ـ جواب المسائل النجفية.

١١ ـ جواب المسائل الهندية.

ومن هنا يتضح أن الشهيد كان يرد علىٰ الرسائل التي ترده من انحاء متعددة من العالم الاسلامي ويجيب عن اسئلتها المختلفة في موضوعات عديدة مابين الفقه والكلام والادب والفلسفة وغـيرها فتأتي اجوبته علىٰ شكل كراسات تفي بالغرض المطلوب.

وقد ضاع منها الكثير فيما يبدو.

١٢ ـ جواهر الكلمات في صيغ العقود والايقاعات. يذكر الشيخ آقا بزرگ الطهراني انه رأىٰ نسخة من الكتاب في مكتبة السيد محمد على هبة الدين مخطوطة سنة ٩٩٦ هـ. بخط (مقصود علي) ابن شاه

---

١ ـ الذريعة ج ٤ ص ٤٥٢.

محمد الدامغاني ولم تكن تحمل اسم الكتاب[١] (جواهر الكلمات).

١٣ ـ حاشية الارشاد.

١٤ ـ حاشية تمهيد القواعد.

١٥ ـ حاشية فتوىٰ خلافيات الشرايع.

١٦ ـ حاشية القواعد.

١٧ ـ حاشية مختصر النافع.

١٨ ـ حاشية علىٰ عقود الإرشاد.

١٩ ـ رسالة آداب الجمعة.

وتدور حول الأعمال المستحبة في يوم الجمعة.

٢٠ ـ رسالة في تحريم طلاق الحائض.

٢١ ـ رسالة في تيقن الطهارة والحدث.

٢٢ ـ رسالة في صلاة الجمعة.

كتاب صغير يبحث في صلاة الجمعة. ويعتقد الشهيد بوجوب صلاة الجمعة عيناً.

٢٣ ـ رسالة في البحث عن صلاة الجمعة.

٢٤ ـ رسالة في طلاق الغائب.

---

١ ـ الذريعة ج ٥ ص ٢٧٨.

٢٥ ـ رسالة في من احدث في اثناء غسل الجنابة.

٢٦ ـ رسالة في حكم المقيمين في الاسفار.

٢٧ ـ رسالة في نيات الحج والعمرة.

٢٨ ـ رسالة في دعوىٰ الاجماع.

٢٩ ـ رسالة في الولاية وان الصلاة لاتقبل الا بها. فرغ الشهيد من تأليفها في الخامس من شهر صفر سنة ٩٥٠ هـ.[١].

٣٠ ـ رسالة في نجاسة البئر بالملاقاة وعدمها.

٣١ ـ رسالة في احكام الحبوة.

٣٢ ـ رسالة في ميراث الجمعة.

٣٣ ـ رسالة في جواب ثلاث مسائل.

٣٤ ـ رسالة في عدم جواز تقليد الميت.

٣٥ ـ رسالة في الإجتهاد.

٣٦ ـ رسالة في عشرة مباحث مشكلة في عشرة علوم.

٣٧ ـ رسالة في حديث «الدنيا مزرعة الآخرة».

٣٨ ـ رسالة في تحقيق النية.

٣٩ ـ رسالة فتوىٰ الخلاف من اللمعة.

---

١ ـ الذريعة ج ١١ ص ١٢٦.

٤٠ ـ رسالة في تحقيق الإجتماع.

٤١ ـ رسالة في تفسير قوله تعالى «السابقون السابقون».

٤٢ ـ رسالة مسائل اسطنبولية في الواجبات العينية.

٤٣ ـ رسالة في شرح البسملة.

٤٤ ـ رسالة في ذكر احواله، وهو كتاب صغير جاء علىٰ شكل مذكرات تغطي جزءاً من حياته منذ أن كان صبياً يدرس في حضرة والده ورحلته الىٰ الشام ثم مصر، وحجه الىٰ بيت الله الحرام، ومن ثم زيارته العتبات المقدسة في العراق ورحلته الىٰ تركيا، واخيراً استقراره في بعلبك وتصدّيه الىٰ الزعامة الدينية.

٤٥ ـ رسالة في تحقيق العدالة.

٤٦ ـ سؤالات الشيخ احمد واجوبتها.

٤٧ ـ سؤالات الشيخ زين الدين واجوبتها.

٤٨ ـ «الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية» وتعدّ اشهر مؤلفاته علىٰ الاطلاق، وسنتعرض الىٰ ذكرها فيما بعد.

٤٩ ـ روض الجنان في شرح ارشاد الاذهان.

ولعله اول كتب الشهيد في الفقه الاستدلالي، ألفه الشهيد سنة ٩٤٨ هـ. وكان عمره يومها ٣٧ عاماً. ويذكر ابن العودي أن الشهيد لم يُطْلِع عليه أحداً. ولم يوفَّق الشهيد الىٰ استكماله، فظهر منه

مجلد واحد في الطهارة والصلاة، طُبع في طهران سنة ١٣٠٧ هـ. مع كتاب «منية المريد»[١].

٥٠ ـ شرح ارشاد الاذهان.

٥١ ـ شرح «الفية» الشهيد الأوّل ـ شرح مختصر ـ.

٥٢ ـ شرح «الفية» الشهيد الأوّل ـ شرح متوسط ـ.

٥٣ ـ شرح «الفية» الشهيد الأوّل ـ شرح مفصّل ـ.

والألفية نفسها تتضمن الف مسألة تدور حول واجبات الصلاة، وقد عد صاحب الذريعة ٣١ شرحا للألفيه في طليعتها شرح صاحب المعالم وهو نجل الشهيد الثاني المتوفىٰ سنة ١٠١١ هـ. يليه شرح حسين بن عبد الصمد والد الشيخ البهائي المتوفىٰ سنة ٩٨٤ هـ.[٢]

٥٤ ـ «شرح النفلية» للشهيد الأوّل وتدور حول مستحبات الصلاة.

٥٥ ـ شرح الدراية، فرغ منه الشهيد في الخامس من ذي الحجة سنة ٩٥٩ هـ.

٥٦ ـ شرح المنظومة، والمنظومة من تأليف الشهيد نفسه وهو في

---

١ ـ الذريعة ج ١١ ص ٢٧٥.

٢ ـ الذريعة ج ٢ ص ٢٩٦.

علم النحو.

٥٧ ـ غنية القاصدين في اصطلاحات المحدثين.

٥٨ ـ فتاوىٰ الشرايع.

٥٩ ـ فتاوىٰ الارشاد.

٦٠ ـ فتاوىٰ المختصر.

٦١ ـ فوائد خلاصة الرجال.

٦٢ ـ كشف الريبة من احكام الغيبة.

ويدور الكتاب حول مسألة الغيبة وروايات تحريمها وكيفية اجتنابها. فرغ الشهيد من تأليفه في ١٣ صفر سنة ٩٤٩ ﻫ. وقد طبع مراراً في النجف وايران وترجم الىٰ اللغة الفارسية.

٦٣ ـ كتاب الرجال والنسب.

٦٤ ـ كتاب تحقيق الايمان والإسلام.

٦٥ ـ كتاب الإجازات.

٦٦ ـ «منسك الحج الصغير»

٦٧ ـ «منسك الحج الكبير»

٦٨ ـ «منار القاصدين في اسرار معالم احكام الدين».

و هو كتاب اخلاقي واشار الشهيد الىٰ ذلك في كتابه «منية

المريد»[١].

٦٩ ـ «مسكن الفؤاد عند فقد الاحبّة والأولاد» وسنتعرض الىٰ ذكره فيما بعد.

٧٠ ـ «مبرد الاكباد في مختصر مسكن الفؤاد» وهو تلخيص للكتاب السابق.

٧١ ـ «مختصر الخلاصة».

٧٢ ـ «منظومة في النحو».

٧٣ ـ «المقاصد العلية في شرح الالفية». وهو الشرح الكبير لألفية الشهيد الأوّل. فرغ الشهيد من تأليفه في ١٩ ربيع الأوّل سنة ٩٥٠ هـ.

٧٤ ـ «المسالك في شرح شرائع الإسلام».

ويعدّ الكتاب من المؤلفات القيمة في الفقه الاستدلالي، تعرض الشهيد فيه لشرح كتاب شرائع الإسلام «للمحقق الحلي» المتوفىٰ سنة ٦٧٦ هـ. وقد لفت الكتاب انظار فقهاء الشيعة على مرّ العصور وبقيت آراء الشهيد الفقهية حجة في الفقه الامامي.

جدير بالذكر أن شروحاً أخرىٰ علىٰ كتاب «الشرايع» قد كتبت، في طليعتها «جواهر الكلام» لفقيه الشيعة الكبير «الشيخ محمد

---

١ ـ مقدمة منية المريد لرضا المختاري.

حسين النجفي» الذي عرف فيما بعد بـ «صاحب الجواهر» توفي سنة ١٢٦٦ هـ. ويقع الكتاب في ٤٣ مجلداً وقد طبع مراراً.

مسكن الفؤاد عند فقد الاحبة والاولاد

ويعود سبب تأليف هذا الكتاب أنه فقد أولاداً صغاراً ولم يبق له من أولاده سوىٰ الشيخ حسن «صاحب المعالم» فكتب رسالة مختصرة تحت هذا العنوان سجل فيها ماينبغي علىٰ الإنسان من الصبر والسلوان لدىٰ مواجهته الشدائد خاصّة في فقد الاحبّة والأولاد، ثم اختصر ذلك في كتاب تحت عنوان «مبرّد الأكباد في مختصر مسكن الفؤاد» وقد طبع مراراً في ايران.

ترجمه عديدون الىٰ الفارسية وفي طليعتهم السيد محمد باقر الحجتي.

فرغ الشهيد من تأليف كتابه الآنف الذكر في الأوّل من رجب سنة ٩٥٤ هـ.

شرح اللمعة

يحتل كتاب «الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية» مكان الصدارة في الكتب الفقهية حتىٰ اليوم، ومايزال المنهج الاساس في

الدراسات الحوزوية في مضمار الفقه الاستدلالي، والتي لايـمكن لطالب العلم الاستغناء عنه ابداً.

وكما هو ظاهر في العنوان فان الكتاب شرح كتبه الشهيد الثاني علىٰ «اللمعة الدمشقية» للشهيد الأوّل محمد بن مكي[١] (رضـوان الله عليه). ويعد الكتاب من ابرز مؤلفات الشهيد الثاني ويمتاز بدقة النظر وشمولية الاطلاع.

وقد حاز الكتاب اهتمام الفقهاء الاماميين علىٰ مختلف الازمنة.

والكتاب ـ خلافاً لما هو شائع ـ لم يكن آخر مؤلفات الشـهيد، ولعل منشأ هذا الاعتقاد يعود الىٰ ما سجله الشيخ الحر العاملي في كتابه «أمل الآمل» الذي يورد حادث اعتقال الشـهيد الذي تـمّ ـ حسب روايته ـ في بستان للعنب في ضواحي دمشق، وكان الشهيد مشغولاً بتأليف كتابه (الروضة البهية).

والحقيقة ان الكتاب مؤلف قبل تسعة اعوام من شهادته بدليل ما سجله الشهيد مـن أن تـاريخ فـراغـه كـان فـي ليـلة السـبت ٢١ جمادىٰالأولىٰ سنة ٩٥٧ هـ.

وبلغ من اهتمام الفقهاء بـ(الروضة البهية) حدّاً كبيراً، اذ تـوالت

---

١ ـ استشهد في دمشق سنة ٧٨٦ هـ.

عليه الشروح والتعليقات حتىٰ ناهزت المئة، وهو ما يدلّ علىٰ مدىٰ اهمية الكتاب وقيمته العلمية[١].

منية المريد

واسم الكتاب كاملاً «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد» ويعدّ الكتاب رسالة اخلاقية تتضمن وصايا فيما يجب علىٰ العالم والمتعلم من المواظبة عليه من الاخلاق الحميدة وما ينبغي للقاضي والمفتي فيه عند اصدار الحكم وبيان الفتوىٰ. ويعدّ الكتاب التفاتة طيبة من لدن الشهيد علىٰ اهمية الجانب الاخلاقي في حياة العلماء والفقهاء ودوره الإجتماعي البنّاء.

«... استمدّ الشهيد الثاني وصاياه الاخلاقية من القرآن الكريم والسنّة وأحاديث ائمة أهل البيت(ع) في ارساء علاقات سليمة بين العالم وتلميذه وعامّة الناس، وعلاقة التلميذ باستاذه بل وحتىٰ واجبات كل منهما وسلوكه اثناء التدريس»[٢]

---

١ ـ الذريعة ٦ ص ٩٠ و ٩٨ ج ١٣ ص ٢٩٢ و ٢٩٦.

٢ ـ آداب التعليم والتعلّم في الاسلام د. محمد باقر الحجتي.

ومن هنا يعد (منية المريد) كتاباً رائداً في هذا المضمار.

والكتاب يتألف من مقدمة واربعة ابواب ثم الخاتمة، وتتحدث المقدّمة عن اهمية العلم وطلب العلم في ضوء القرآن واحاديث المعصومين؛ ويتطرق الباب الأول الىٰ واجبات كل من التلميذ والاستاذ، فيما يتحدث الباب الثاني عن آداب المفتي والمستفتي وشروط الفتيا، اما الباب الثالث فيشير الىٰ آداب المناظرة وطرق الحوار، في حين يختصّ الباب الرابع في بيان اسلوب الكتابة والتأليف، ثم تأتي الخاتمة لتوضح مراتب العلوم الشرعية ومقدمات ذلك معزَّزة بالمواعظ والحكم التي تنفع طلبة العلوم الدينية.

وتأتي اهمية الكتاب من تحديده معالم الطريق... طريق الدراسة الدينية ودوره في تحديد الاهداف وهي مسألة حياتيه جداً.

ولذا تهيب المؤسسة الدينية بالطلبة والاساتذة وتدعو الىٰ دراسته والاستفادة منه[١]

تُرجم الكتاب الىٰ اللغة الفارسية لأول مرة سنة ١٣٦٩ هـ. ترجمه السيد محمد باقر الساعدي الخراساني وطبع سنة ١٣٧٢ هـ. في طهران.

---

١ ـ مجلة الحوزة العدد ٢٩ ـ ١٤٠٨هـ

ثم ترجم مرّة اخرىٰ تحت عنوان «سراج المبتدئين» ترجمه السيد محمود الدهسرخي الاصفهاني سنة ١٣٧٦ هـ.

ثم ترجم حديثاً سنة ١٤٠٠ هـ. و هو أفضل الترجمات، ترجمه الدكتور محمد باقر الحجتي وقد أعيد طَبعه ستة عشر مرّة، وقد اضاف المترجم الىٰ الكتاب عرضاً مفصلاً لحياة الشهيد الثاني مؤلف الكتاب.

شذرات من كتاب منية المريد

والىٰ القارئ الكريم مقاطع مما ورد في الكتاب يمكن ان تلقي الضوء علىٰ طريقة تفكير واحد من ابرز رجالات العلم والفكر الانساني:

«ان لا يستنكف من التعلم والاستفادة ممن هو دونه في منصب، او سن، او شهرة، او دين، او في علم آخر، بل يستفيد ممن يمكن الاستفادة منه، ولا يمنعه إرتفاع منصبه وشهرته من استفادة ما لا يعرفه، فتخسر صفقته ويقل علمه، ويستحق المقت من الله تعالىٰ. وقد قال النبي صلّىٰ الله عليه وآله: «الحكمة ضالّة المؤمن فحيث

وجدها فهو أحق بها من غيره».

«ان لا يحضر (المتعلم) مجلس الدرس الا متطهراً من الحدث والخبث ومتنظفاً ومتطيباً في بدنه وثوبه، لابساً احسن ثيابه، قاصداً بذلك تعظيم العلم...».

وفي فصل آخر يوصي الشهيد طالب العلم قائلاً:

«ان يترك العشرة مع من يشغله عن مطلوبه فانّ تركها من اهم ما ينبغي لطالب العلم ... واعظم آفات العشرة ضياع العمر بغير فائده...».

«ان يعتقد في شيخه أنه الأب الحقيقي والوالد الروحاني، وهو اعظم من الوالد الجسماني فيبالغ بعد الأدب في حقه، كما تقدم في رعاية حق أبويه ووفاء حق تربيته، وقد سأل الاسكندر صبياً: ما بالك توقر معلمك اكثر من والدك؟ فقال: لأن المعلم سبب لحياتي الباقية، ووالدي لحياتي الفانية».

«يجب علىٰ من علم منهم بنوع من العلم وضروب الكمال أن يرشد رفقته ويرغبهم في الاجتماع والتذاكر، والتحصيل، ويهون عليهم مؤنته، ويذكر لهم ما استفاده

من الفوائد والقواعد والغرائب علىٰ جهة النصيحة والمذاكرة، فبارشادهم يبارك الله له في علمه ويستنير قلبه، وتتأكد المسائل عنده مع ما فيه من جزيل ثواب الله تعالىٰ وجميل نظره وعطفه.

ومتىٰ بخل عليهم بشيء من ذلك كان بضد ماذكر، ولم يثبت علمه، وإن ثبت لم يثمر، ولم يبارك الله فيه، وقد جرىٰ ذلك لجماعة من السلف والخلف.

ولا يحسد احداً منهم، ولا يحتقره، ولا يفتخر عليه، ولا يعجب بفهم نفسه وسبقه لهم، فقد كان مثلهم ثم منّ الله تعالىٰ عليه. فليحمد الله تعالىٰ علىٰ ذلك ويستزيده منه بدوام الشكر، فاذا امتثل ذلك وتكاملت أهليته، واشتهرت فضيلته ارتقىٰ الىٰ ما بعده من المراتب، والله ولي التوفيق».

ويستمر الكتاب علىٰ هذا المنوال في رسم مسار اخلاقي رفيع يشفّ عن روح طاهرة ونفس عالية سمت في عوالم الخلق الكريم حتىٰ التحقت بركب الشهداء الخالدين.

الفصل الثالث

في طريق المجد

سرّ النجاح

يتساءل المرء احياناً عن السر الذي يـمكن وراء نـجاح بـعض الناس وكيف ارتقوا قمم المجد والكمال الانساني.

ان استقراءنا لحياة الكثيرين من اولئك الخالدين سوف يـقودنا الىٰ عاملَين اساسيين هما وراء كل النجاحات وجميع الانتصارات وهما:

أولا: العمل الدؤوب

لا يمكن للذكاء وحده او القابليات الفطرية التي أودعها الخالق في الذات البشرية أن تحقق ما يصبو اليه الانسـان مـن الأهـداف والغايات، لأن سرّ نجاح المرء انما يمكن وراء العـمل المـتواصـل والكفاح المستمر، وما ينطوي عليه الانسان مـن خـصال التـحمل

والصبر في سبيل ذلك.

السعي الدؤوب وتحمل العذابات والمعاناة في سبيل الوصول الىٰ الاهداف هي المعادلة المنطقية التي تحكم الحياة الانسانية. وفي غير ذلك فان الركون الىٰ حياة الدعة والرتابة تعني الخمول والفشل.

«ومن أراد طاووساً عليه أن يتحمل مشاق الهند»[1] «بلا عذاب لا يحصل المرء علىٰ كنز»[2].

ولقد كان الشهيد مثالاً في السعي والعمل المستمر فلم يكن ليعرف معنىٰ للراحة أو الركون وحياة الدعة، اذ قضىٰ عمره في السفر من بلاد الىٰ بلاد واضعاً نصب عينيه هدفه الوحيد وهو طلب العلم اين ما كان وعند من كان.

ولم تكن المشكلات ـ وما اكثرها ـ لتقف حاجزاً بينه وبين مايروم، فاجتاز جبالاً من الهموم، بل وقضىٰ مدّة من حياته مطارَداً متخفياً عن الانظار، ولم تمنعه حراجة الموقف من التأليف والتحقيق والمطالعة، ولهذا تمكّن الشهيد أن يخلّف وراءه كل ذلك التراث الضخم من العلوم والمعارف في حياة قصيرة نسبياً.

---

١ و ٢ ـ اشعار فارسية.

ثانياً: النظام

يبقىٰ النظام والتخطيط واستثمار الوقت استثماراً جيداً البعد الثاني في نجاح الانسان.

الوقت والزمن و ـ بشكل عام ـ العمر، هو رأس المال الحقيقي في حياة الافراد والشعوب، فالنظام وراء تقدم الإنسان في طريقه نحو الهدف المنشود، والنظام وراء سيادة الامم ومجد الشعوب وابداع الحضارات، وتبقى الفوضىٰ وراء مسلسل الفشل المستمر في حياة الأمم والأفراد.

ونجاح الانسان ـ اي انسان ـ انما يتوقّف علىٰ مدىٰ احترامه للوقت واستثماره للزمن. وعندما نطالع وصيّة الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام وهو يودّع الحياة، نقف أمام هذه العبارة الخالدة، اذ يقول مخاطباً الاجيال: «**اوصيكما، وجميع ولدي واهلي ومن بلغه كتابي بتقوىٰ الله ونظم امركم**»[(١)].

اجل، فالنظام يعني التقدم المدروس في الطريق.. طريق النجاح والمجد وتحقيق الهدف المنشود.

---

١ ـ نهج البلاغه ٤٧.

النظام في شخصية الشهيد

كان ابن العودي شديد الاعجاب بشخصية الشهيد، وقد رافقه مدّة سبعة عشر عاماً متواصلة، وهي مدّة كافية لسبر غوره. وقد بلغ بـه الانبهار حدّاً دفعه الىٰ تسجيل جانب من حياة الشـهيد وبـرامـجه اليومية والحياتية.

فاليوم والساعة في نـظر ذلك العـملاق ثـروة كـبرىٰ لا يـنبغي التفريط بها. ومن هنا نجد الشهيد يقسم وقته ويوزّع ساعات نهاره وليله بين المطالعة والتحقيق والتأليف وتسجيل النتائج وبين العبادة والتضرع الىٰ الله سبحانه وتعزيز علاقته وتوثيق صلته به وبين القاء الدروس وتربية التلاميذ وبين تـأمين حـاجات اسـرته واسـتقبال الضيوف والزائرين والاجابة عن مسائلهم الشرعية وفضّ النزاعات التي قد تحتدم بين الناس[١].

لقد كان الشهيد ينظّم وقته بدقة عالية بحيث يستفيد ويستثمر كل لحظة تمرّ[٢].

ومن هنا تفوّق الشهيد وبلغ قمّة التكامل من خلال تسخيره الزمن

---

١ ـ بغية المريد ـ ابن العودي. (مخطوطة).

٢ ـ روضات الجنات ج ٣.

واستثماره الوقت علىٰ افضل وجه، وهذا هو سرّ نجاحه وعبقريته.

كراماته

الحياة الانسانية تمضي وتتحرك ضمن معادلات مادّية رتيبة اعتادها البشر في اطار الحواس الخمس المحدودة، وقد تحدث احياناً بعض الأمور الخارقة للمألوف تدفع بالإنسان الىٰ الدهشة والتأمل علىٰ شكل هزّة نفسية تتولد في الاعماق.

وقد رافقت ظاهرة الاعجاز وخرق القانون الطبيعي حياة النبوات جميعاً، وكانت سبباً في اهتزاز النفوس واستيقاظ العقول وانقيادها الىٰ نور الحق..

لقد مضىٰ زمن المعجزات بانتهاء النبوّات، ولكن الله سبحانه يكرم أولياءه وعباده المخلصين ويهبهم كرامات من لدنه لما بلغوه من سموّ المنزلة ورفيع المقام وشفافية الروح.

وهذا هو الفارق بين المعجزة والكرامة، فالمعجزة امر خارق للمألوف تحدث كاستجابة للتحدّي واثبات الحق، امّا الكرامة فتأتي عرَضاً دون أن يكون هناك تحدٍّ ما [1].

---

١ ـ الاعجاز في ضوء العقل والقرآن ـ الطباطبائي.

واذا كانت المعجزات قد رافقت مسار النبوّات علىٰ مرّ التاريخ، فان ظاهرة الكرامات اقترنت ـ هي الأخرىٰ ـ بتلك الارواح الشفافة والنفوس الصافية والقلوب العامرة بالايمان والتقوىٰ والصلاح.

وتأتي الكرامة كأمر يكسر رتابة المألوف في الحياة؛ مرّة علىٰ شكل رؤيا كفلق الصبح أو استكشاف للمستقبل، او احساس غريب يخامر النفس الانسانية في لحظة صفاء شفّافة.

ولقد بلغ الشهيد من صفاء النفس وطهارة القلب حدّاً رفعه الىٰ مصاف الاولياء من عباد الله الصالحين.

رؤيا

ينقل الشيخ البهائي[1] عن والده وكان تلميذاً للشهيد (رضوان الله عليه) أنه زاره ذات صباح فرآه مستغرقاً في فكر عميق فسأله عن سبب استغراقه وحزنه فأجابه الشهيد: يا أخي اظن بأني الشهيد

---

١ ـ «٩٥٣ ـ ١٠٣٥» هو من اشهر علماء عصره علىٰ الاطلاق ولد في بعلبك وتوفي في اصفهان، ويعود اصله الىٰ جبل عامل، بقيت كتبه في الرياضيات والفلك مرجعاً رئيسياً مدّة طويلة من مؤلفاته: «تشريح الافلاك» «خلاصة الحساب» و «الكشكول» ـ المترجم.

الثاني.

فسأله والد الشيخ البهائي: ومن أين عرفت ذلك؟

فأجاب الشهيد متأثراً:

رأيت ليلة أمس في عالم الرؤيا السيد المرتضىٰ وقد أقام وليمة كبرىٰ دعا اليها جميع علماء الامامية، فلمّا دخلت المجلس، نهض السيد المرتضىٰ ورحّب بي ثم دعاني الىٰ الجلوس جنب محمد بن مكي (الشهيد الأوّل) فجلست الىٰ جانبه، واستيقظت من نومي ولا احسب نفسي الا شهيداً[1].

علىٰ شواطئ المتوسط

وينقل الشيخ البهائي ايضاً عن والده أنه كان يتمشىٰ مع استاذه الشهيد على شاطئ البحر المتوسط وفجأة تغيرت ملامح الشهيد كمن يشاهد كارثة ما، فسأله تلميذه عن سبب ذلك فأجاب الشهيد: سوف يقتل في هذا المكان رجل عظيم.

وفي الرسالة الموسومة بـ«مسائل السيد بدر الدين حسن

---

١ ـ روضات الجنات ج ٣ ص ٣٨٣.

الحسيني» والتي تتضمن اسئلة السيد المذكور للشيخ حسين عبد الصمد (تلميذ الشهيد) يرد هذا السؤال[١]:

ـ لقد نقل عنكم أنكم كنتم ترافقون الشهيد في اسطنبول فقال لكم الشهيد: قريباً سيقتل رجل عظيم في هذا المكان، وهذا كما هو ظاهر تنبؤ فقد لقي الشهيد مصرعه في ذات المكان الذي اشار اليه، ويعدّ هذا كرامة من كراماته (رضوان الله عليه) فما مدىٰ صحة ما نسب اليكم؟

ج ـ نعم لقد حصل ذلك معي، حيث اخبرني الشهيد باستشهاد رجل عظيم في ذلك المكان، وهذه مكاشفة نفسانية حيث تنبأ بما سيجري عليه في المستقبل.

---

١ ـ النص الأصلي كما يلي: سؤال: ما يقول مولانا فيما يروىٰ عن الشهيد الثاني انه مر بموضع في استنبول ومولانا الشيخ معه فقال: يوشك ان يقتل في هذا الموضع رجل له شأن... ثم أنه استشهد في ذلك الموضع. الجواب: نعم هكذا وقع منه قدس الله روحه وكان الخطاب للفقير، وبلغنا انه استشهد في ذلك الموضع وذلك ما كشف لنفسه الزكية حشره الله مع ائمته الطاهرين ـ شهداء الفضيلة. ص ١٣٧ .

كرامة اخرىٰ

ويسجل تلميذه المخلص «ابن العودي» كرامة اخرىٰ رواها الشهيد له حدثت اثناء رحلته الىٰ مصر، وخلاصتها أنه ليلة الاربعاء لعشرة مضين من ربيع الأول سنة ٩٦٠ هـ وكان وقتها في «الرملة» فتوجه بمفرده لزيارة قبور الأنبياء في مسجد يقال له «الجامع الأبيض» وكان في ضاحية المدينة، فلما وصل المسجد رآه مسدود الأبواب ولم يكن هناك أحد، فوضع الشهيد يده علىٰ القفل، فانفتح الباب ودخل الشهيد وراح يصلّي لله واستغرق في الدعاء حتىٰ انقطع اليه سبحانه، ونسي كل ما حوله وأنه علىٰ سفر وأن القافلة ستدعه وتواصل سيرها الىٰ مصر.

فلما انتبه لنفسه ادرك طول الوقت الذي قضاه داخل المسجد فأسرع الىٰ القافلة فلم يعثر علىٰ اثر لها، فبقي الشهيد حائراً يقلّب كفّيه؛ ثم قرّر أن يتبع آثار القافلة علّه يلحق بها.

وبعد مدّة من السير ـ ادركه فيها التعب ـ فجأة ظهر في الأفق فارس يشقّ غبار الطريق، ودعاه الىٰ الركوب. وما اسرع أن انطلقت بهما الفرس تنهب الأرض وتطوي الصحراء. واذا به يجد نفسه في وسط القافلة بين اصحابه ورفاقه.

فنزل الشهيد عن الفرس ثم التفت اليه يشكره فلم يجد له اثرا.

ويعلّق ابن العودي علىٰ ذلك بقوله:

انها كرامة اخرىٰ للشهيد حقّه بها الله سبحانه ولا ينكرها الاّ من ران علىٰ قلبه ومن لفّت بصيرته حجب الجهل والهوىٰ، والاّ فان الله لا ينسىٰ عباده الصالحين[١].

السفر

تغرَّبْ عن الاوطان في طلب العلىٰ
وسافر ففي الاسفار خمس فوائد
تفرّج همٍّ واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد[٢]

عادة ماتقترن الرتابة والسكون بالخمول، فالنهر يبقىٰ ماؤه عذباً طيباً مادام جارياً، فاذا توقّف تحوّل الىٰ بركة آسنة.

ويبقىٰ السجن اشدّ ايلاماً للنفس الانسانية لأنه يقيّدها من الحركة ويصادر شعورها بالحرّية والانطلاق.

السجن جدران اربعة تكسر اجنحة الانسان وتمنعه من التحليق

---

١ ـ روضات الجنات ج ٣ ص ٢٥٥.

٢ ـ من الشعر المنسوب الىٰ الامام علي (ع).

في دنيا الله الواسعة. وما اشبه الانسان الذي يقضي عمره في ذات المكان الذي ولد فيه، لا يعرف غيره ولا يرىٰ سواه، ما اشبهه بالطائر الذي يفضّل حياة الاقفاص علىٰ السباحة في الفضاء الازرق الجميل، وهكذا انسان لا يمكن أن يكون عظيماً، وسيبقىٰ ويعيش علىٰ هامش صغير من الحياة.

ومن هنا نرىٰ اصحابَ النفوس العظيمة والأرواح الكبيرة يتوقون الىٰ السفر والرحيل والهجرة والانطلاق في ارض الله.

أسفار الشهيد

ولقد كان الشهيد الثاني واحداً من اولئك الرجال، فكان التنقّل والسفر سمة بارزة في حياته، فاذا اخذنا بنظر الاعتبار وسائل النقل التي كانت في عصره ومشاقّ السفر في ذلك العصر، ادركنا ارادة ذلك الرجل وتوقه الىٰ الرحيل والانطلاق.

تنقّل الشهيد بين سوريا والعراق ومصر والحجاز وتركيا وفلسطين، اضافة الىٰ وطنه لبنان؛ كما زار مدناً وقرىٰ عديدة بدءًا من ميس، كرك نوح، دمشق، القاهرة، مكة، المدينة، كربلاء، النجف، سامرّاء، الكاظمين، بغداد، الحلّة، الكوفة، بيت المقدّس، سيواس، اسكدار، ازغين، توقات، ملاطية، اسطنبول، واخيراً بعلبك.

ترىٰ ما هي بواعث السفر لدىٰ الشهيد (رضوان الله عليه)؟ ماالذي دفعه لأن يتجشّم مشاقّ الطريق ويتحمّل عناء الرحيل، متنقّلاً هنا وهناك في اطراف العالم الاسلامي؟

فاذا اراد المرء ان يبحث في اعماق الرجل، ماالذي سيجده هناك؟ لا شيء سوىٰ الحبّ والأمل. اجل الحب والأمل هما وراء كل سيرته المضيئة.

لقد سافر الشهيد في قوافل تجارية، وكان رفاقه تجّاراً يحلمون بالربح الوفير، لايفكّرون في شيء غير البضائع والأموال وعقد الصفقات، اما الشهيد فكان يحمل كتبه واوراقه ولا يحلم بشيء سوىٰ العلم والفكر والمعرفة.

لقد نذر الشهيد حياته لله واوقفها علىٰ طلب العلم وخدمة الانسانية، فاتخذه الله شهيداً وجعله من الخالدين.

مذكّراته

لعلّه الوحيد في عصره الذي يبادر الىٰ تسجيل مذكراته في دفتر خاص، مثبتاً فيه تجاربه ومشاهداته اليومية ورحلاته، وكان لعمله هذا ابلغ الاثر في القاء الضوء علىٰ مجمل حياته الحافلة.

يبدأ مذكراته بـ«بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين،

والصلاة والسلام علىٰ اشرف المرسلين وآله الطـاهرين واصـحابه المنتخبين».

ثم يثبت تاريخ ولادته ويذكر السنة التي تعلم فيها القرآن ٩٢٠ هـ وعمره آنذاك تسعة اعوام، ويسجّل تاريخ وفاة والده فـي أواسـط رجب من سنة ٩٢٥ هـ ثم رحلته الىٰ ميس للدراسة حتىٰ سنة ٩٣٣ هـ ويسجلّ رحلته الىٰ تركيا قائلاً:

«وكان وصولنا الىٰ مدينة قسطنطينية يـوم الاثـنين ١٧ شهر ربيع الاول سنة ٩٥٢ ووفق الله تعالىٰ لنا منزلاً حسناً رفقاً من احسن منازل البلد قـريباً الىٰ جـميع اغـراضـنا وبقيت بعد وصولي ثمانية عشـر يـوماً لا اجـتمع بـأحد الأعيان، ثم اقتضىٰ الحال أن كتبت في هذه الايام رسالة جيدة تشتمل على عشرة مباحث جليلة، كل بحث في فنّ من الفنون العقلية والفقهية والتفسير وغـيرها وأوصـلتها الىٰ قاضي العسكر، وهو محمد بن قطب الدين بن محمد بن محمد قاضي زاده الرومي، وهو رجـل فـاضل أديب عاقل لبيب من احسن الناس خُلُقاً وتهذيباً وأدباً، فوقعت منه موقعاً حسناً و حصل لي بسبب ذلك من حظ عـظيم

واكثر من تعريفي والثناء علي للافاضل واتفق لي في هذه المدّة بيني وبينه مباحثة في مسائل كثيرة من الحقائق»

وفي جانب آخر يقول:

«ففي اليوم الثاني عشر من اجتماعي به أرسل اليّ الدفتر المشتمل علىٰ الوظائف والمدارس، وبذل لي ما اختاره واكّد في كون ذلك في الشام أو حلب فاقتضىٰ الحال أن اخترت منه المدرسة النورية ببعلبك لمصالح وجدتها ولظهور امر الله تعالىٰ بها علىٰ الخصوص، فأعرض لي بها الىٰ (السلطان سليمان)[1] وكتب لي بها براءة، وجعل لي في كل شهر ماشرطه واقفها السلطان نور الدين الشهيد»[2].

وقد بقي الشهيد في تركيا مدّة ثلاثة اشهر ونصف تجوّل خلالها في انحاء مختلفة والتقىٰ شخصيات علمية عديدة.

ولقد كانت رحلته الىٰ تركيا سبباً في بروزه كشخصية كبيرة يحسب لها ألف حساب. وبالرغم من كون زيارته العاصمة

---

١ ـ سليمان القانوني.

٢ ـ رسالة ابن العودي. (مخطوطة).

الاسلامية الكبرىٰ قد اسفرت عن عودته الىٰ وطنه ظافراً، الاّ انـها كانت السبب الاساس ـ فيما يبدو ـ الذي دفع ببعض اصحاب النفوذ الىٰ التفكير بتصفيته والتخلّص منه.

والىٰ القارئ الكريم جوانب من رحلته هذه كما اشار اليها الشهيد في مذكراته.

توقات

وصل الشهيد مدينة «توقات» يوم الجمعة الثاني عشر من شـهر صفر، والمدينة كما وصـفها مـليئة بـالخيرات مـزدحمة بـالسكان ومناخها طيب، وفيرة المياه حيث ينحدر الماء من التلال والجبال التي تحيط المدينة.

وفي جهة الشمال يجري نهر كبير في وادٍ متسع يـضمّ اربـعمئة قرية، وقد زار الشهيد بعضها، فالوادي هو الطريق الوحـيد آنـذاك لمغادرة المدينة. ويذكر الشهيد أن القرى قريبة مـن بـعضها حـتىٰ ليحسبها المرء قرية واحدة.

ويصل الشهيد مدينة أُخرىٰ هي «أماسية»[1].

---

١ ـ مدينة صغيرة تقع في آسيا الصغرىٰ في اقليم سيواس علىٰ شواطي نـهر

ويذكر الشهيد أنه يوجد بها بناء فخم يدعىٰ «عـمارة السـلطان بايزيد»[١] وهو فيما يبدو فندق كبير للمسافرين ومدرسة كـبرىٰ. وكان يحكم المدينة يومها «السلطان مصطفىٰ» ابن السلطان سليمان القانوني، ويقال أنه لقي مصرعه علىٰ يد والده ابّـان الاسـتعدادات العسكرية لمواجهة ايران لخوف الأخير مـن طـموحات ابـنه فـي الاستيلاء علىٰ سدّة الحكم. وتزامن ذلك الحادث مع موت «امر الله» الابن الثاني للسلطان في ظروف غامضة في مدينة حلب، واشـيع وقتها أن الأب هو وراء ذلك ايضاً.

امضىٰ الشهيد مدّة ١٦ يوماً في «أماسية». ثم توجّه بـعدها الىٰ مدينة القسطنطينية[٢].

وعلىٰ امتداد الوادي الكبير سجّل الشهيد كثيراً من مشـاهداتـه مفتتنا بتلك الطبيعة الساحرة، حيث الغابات الكثيفة المكتظّة بانواع الاشجار، والازهار والثمار.

«يشيل ايرماق»، فيها مساجد ومدارس عديدة، فتحت سنة ١١٣ هـ.

١ ـ من سلاطين آل عثمان.

٢ ـ اتخذت اسم اسلامبول فيما بـعد ثـم اسـطنبول فـي الوقت الحـاضر ـ المترجم.

فهناك اشجار الجوز والرمّان، والبندق والعنب والتفاح والخوخ والكمثرىٰ؛ وانواع لا حصر لها من الورود والازهار المختلفة الاشكال والالوان.

اضافة الىٰ اشجار الصنوبر والصفصاف والسنديان والبلوط، وانواع أخرىٰ لم يكن قد شاهدها الشهيد من قبل. وبعد بلغ انبهار الشهيد بتلك البقعة من الأرض حدّاً اشار فيه الىٰ أنه لم يشاهد طيلة عمره مناظر اجمل منها، كما اشار الىٰ انها غابات طبيعية لم يكن للانسان دور في زراعتها.

ويتوقّف الشهيد أمام شجرة عملاقة فيحاول تحديد محيط جذعها وارتفاعها، فسجل أن محيطها يتجاوز الثلاثين شبراً، وقدّر ارتفاعها باكثر من مئتي شبر[١].

القسطنطينية

ويصل الشهيد مدينة (اسطنبول) أو القسطنطينية كما ورد في مذكراته، وذلك بتاريخ ١٧ ربيع الأول سنة ٩٥٢ هـ. يبقىٰ مدّة ١٨

---

١ ـ اذا افترضنا ان الشبر يساوى ٢٠ سم فان ارتفاعها يساوي اربعين متراً أمّا محيط جذعها فيساوى «٦» امتار.

يوماً لم يجتمع فيها بأي من اصحاب النفوذ هناك، اعدَّ خلالها بحوثاً رائعة في مختلف الفنون والعلوم، ثم عرضها علىٰ قاضي الجيش «محمد بن قطب الدين قاضي زاده الرومي» وكان انتخاب الشهيد لهذه الشخصية موفّقاً جداً اذ ابدىٰ القاضي اعجابه الشديد بالبحوث واحترامه العميق لشخصية الشهيد، ويلتقي الرجلان وتدور بينهما حوارات متعددة وثّقت العلاقات بينهما؛ وهنا يعرض الشهيد رغبته في التدريس في بعض المدارس. وقد بلغ من اجلال القاضي له أنه ارسل اليه فيما بعد سجّلاً يضمّ مختلف الوظائف والمناصب الرسمية وما علىٰ الشهيد الاّ أن يبدي رغبته في أحدها شريطة أن يكون ذلك في الشام أو حلب.

وهي فرصة ذهبية لمن أراد الدنيا وزخرفها، فالقاضي لم يكن شخصية عادية بل كان احد رجال النفوذ والحظوة لدىٰ سليمان القانوني أقوىٰ سلاطين عثمان علىٰ الاطلاق.

غير اننا نرىٰ الشهيد يعزف عن كل شيء مؤثراً التدريس في المدرسة النورية ببعلبك، ويتقدم القاضي بالطلب الىٰ «السلطان سليمان» الذي سرعان مايوافق على الفور.

في حضرة أبي ايوب الانصاري:

وفي مدّة اقامته في القسطنطينية زار الشهيد مرقد الصحابي الجليل ابي أيوب الأنصاري[١] ومرقده خارج المدينة، وقد بنىٰ له السلطان «محمد الفاتح» مزاراً كبيراً، وهناك ينزوي الشهيد في جانب من المرقد ليقرأ جزءاً من القرآن، وبدا له أن يتفأل بالقرآن علّه يعرف ما حصل لزوجته وكان قد تركها حاملاً؛ ففتح القرآن وطالعته الآية الكريمة: «وبشرناه بغلام حليم»[٢].

ويهوي الشهيد للسجود شاكراً لله، ولا ينسىٰ أن يسجّل الآية الكريمة ويثبت تاريخ ذلك اليوم.

ويغادر الشهيد القسطنطينية برفقة تلميذه ابن العودي الىٰ «اسكدار» في الجانب الآخر من المضيق، وهناك يتسلم الشهيد

---

١ ـ خالد بن زيد من بني النجار وهو من قبيلة الخزرج وأحد أبرز الصحابة، شهد بيعة العقبة واشترك في معارك صدر الاسلام، عُرف بشجاعته وصبره وتقواه وحبّه للجهاد، نزل الرسول (ص) في داره لدىٰ وصوله المدينة مهاجراً، وكان احد الجنود الذين حاصروا مدينة القسطنطينية سنة ٥٣هـ توفي اثناء الحصار ودفن عند اسوار القسطنطينية، وقف الىٰ جانب الامام علي (ع) في حربه مع الخوارج ـ المترجم.

٢ ـ الصافات الآية ١٠١.

رسالة تحمل اليه البشرىٰ بميلاد صبي سمّاه الشهيد «محمداً»[١].

ويسجل ابن العودي تاريخ مغادرة «اسكدار» باتجاه العراق لزيارة العتبات المقدسة هناك وهو يوم الاثنين الثاني من شهر شعبان، متخذين نفس الطريق الذي سلكاه من سيواس[٢] الىٰ اسطنبول. ويصلان «سيواس» يوم الاثنين لخمس بقين من شعبان. وبعد استراحة قصيرة، استأنف الشهيد رحلته في الثاني من شهر رمضان المبارك.

وكانت الرحلة من اسكدار شاقة، فالرياح باردة جداً والثلوج تنهمر بغزارة، وقد امضيا ليلتين خلال سفرهما وسط الثلوج.

لقاء الكليني

ويذكر الشهيد أنه اثناء رحلته رأى ذات ليلة في عالم الرؤيا انه زار الشيخ الكبير «محمد بن يعقوب الكليني»[٣] ويصف الشهيد

---

١ ـ توفي في طفولته .

٢ ـ مدينة تركية نفع علىٰ ضفاف نهر قزل ايرماق.

٣ ـ مؤلف الكتاب المشهور «الكافي» أحد كتب الشيعة الاربعة في الحديث - توفي سنة ٣٢٩ هـ.

ملامحه كما رآه في عالم النوم بأنّه حسن الوجه وقور تنمّ سماته عن العلم والفضل وقد غزا الشيب لحيته.

ويدور بينهما حوار عن كتاب «الكافي» فيبدي الشيخ استياءه من استنساخ كتابه بخط رديء، فيخبره الشهيد باستنساخه بيد خطاط ماهر في دمشق اسمه «زين الدين الغرابيلي» حيث ابدع في كتابته بخط جميل وجعله في جزءين، فتبدو ملامح الانشراح علىٰ وجه الشيخ الكليني(١).

وبعد اربعة أيام من السير يصل الشهيد مدينة «ملطية» التي تتمتع بمناخ معتدل، وتقع بالقرب من منابع نهر الفرات، وبعدها يدخل الشهيد مدينة اخرى هي «ازغين» التي تقع بالقرب من منابع نهر دجلة.

مدن العراق

وفي الرابع من شهر شوال سنة ٩٥٢ هـ. وصل الشهيد مدينة

---

١ ـ بالرغم من ان المسألة لا تعدو كونها رؤيا في عالم الاحلام الاّ ان ذكرها يلقي بعض الضوء علىٰ اهتمام الشهيد بالتراث الفكري والعلمي للسلف الصالح.

سامراء، حيث تشرّف بزيارة مراقد ائمة أهل البيت هناك، وتوجه بعدها الىٰ بغداد لزيارة الكاظمين، ومنها الىٰ مرقد سلمان[١] الفارسي وحذيفة بن اليمان[٢] رضوان الله عليهما، ثم يمّم وجهه نحو كربلاء لزيارة المرقد الطاهر للامام الحسين(ع)، ومنها الىٰ الحلة لزيارة مرقد القاسم[٣] ابن الامام موسىٰ بن جعفر (ع) ومنها الىٰ الكوفة، وفي شهر ذي القعدة يحطّ رحاله في مدينة النجف الاشرف لزيارة بطل الاسلام الخالد علي بن ابي طالب (ع). ويبقىٰ الشهيد الىٰ جوار علي (ع) بقية أيام ذي القعدة يتلو القرآن الكريم.

ويبدو من خلال بعض ماسجله الشهيد في مذكراته وخواطره أنه كان حريصاً علىٰ تلاوة القرآن الكريم، دائماً وكان يتفأّل به كلّما شعر بظلمة الطريق فيسترشد بأول آية من أعلىٰ الصفحة اليمنىٰ بعد ان يقرأ ورداً من الدعاء ويفتح قلبه في لحظة صفاء مستلهماً من آيات

---

١ ـ توفي سنة ٣٥ هـ. دفن في المدائن قرب بغداد وتدعىٰ حالياً سلمان باك او طاق كسرىٰ.

٢ ـ توفي سنة ٣٦ هـ.

٣ ـ فرّ من المدينة وحيداً باتجاه ارض العراق وهناك يصل قرية تدعىٰ باخمرى «القاسمية حالياً» ابّان الحملة الشعواء التي شنّها الرشيد العباسي ضد العلويين.

الله بصيصاً من النور.

وقد أورد الشهيد في بعض مذكراته أنه تفأل ذات يوم بعد أن تلا جزءاً من القرآن الىٰ جوار مرقد الامام، فظهرت له الآية الكريمة «ففرت منكم لما خفتكم فوهب لي ربّي حكما وجعلني من المرسَلين».

ويبدو من خلال اهتمامه بذلك، أنه كان يعاني في وطنه من كيد الحاسدين وتآمر ذوي المصالح من الذين لا يروق لهم وجود شخصية في مستوىٰ الشهيد تضعهم في الظل، فتنكشف ضآلتهم أمام شخصيته العملاقة.

ويغادر الشهيد العراق عائداً الىٰ ارض الوطن فيصل قريته (جبع) في منتصف شهر صفر سنة ٩٥٣ هـ.

في بعلبك

وفي بعلبك يقضي الشهيد فترة من الزمن عدّها الشهيد من اجمل أيام حياته، اذ انقطع للتدريس وراح يفيض علىٰ طلاب العلم من تلامذته ومريديه انواع المعارف والافكار.

ويصل الشهيد في تلك الحقبة أوج مجده العلمي والاجتماعي، اذ اضحىٰ مفتي البلاد العام يفتي اهل كل مذهب من المذاهب الاسلامية

الخمسة حسب آرائهم ونظرياتهم الفقهية.

واضحت بعلبك في عهده مركزاً ثقافياً هامّا استقطب انظار أهل العلم فراحوا يتهافتون عليها من كل حدب وصوب. ويشير ابن العودي الىٰ تلك الفترة:

كنت في خدمته في تلك الايام ولا انسىٰ وهو في اعلىٰ سنام، ومرجع الأنام، وملاذ الخاص والعام، يفتي كل فرقة بما يوافق مذهبها، ويدرّس في المذاهب كتبها، وكان له في المسجد الاعظم بها درس مضافاً الىٰ ماذكر، وصار أهل البلد كلهم في انقياده، وهم وراء مراده، بقلوب مخلصة في الوداد، وحسن الاقبال والاعتقاد، وقام سوق العلم بها علىٰ طبق المراد، ورجعت اليه الفضلاء من اقاصي البلاد، ورقىٰ ناموس السيادة والأصحاب في الازدياد، وكانت عليهم تلك الايام مثل الاعياد[١].

---

١ ـ رسالة ابن العودي ـ مخطوطة ـ.

الفصل الرابع

اشعة الغروب

الغروب

واذا كان الشهيد (رضوان الله عليه) قد وجد نفسه في قمة المجد، فقد رأىٰ نفسه ايضاً أمام هاوية سحيقة، فقد شعر بتحركات مشبوهة من جانب السلطات التي راحت تحصي عليه انفاسه، وراحت التقارير السرّية تترىٰ علىٰ مركز الخلافة تحذر من خطورته.

وفي هذا الجوّ المشحون بالتآمر يقرّر الشهيد العودة الىٰ مسقط رأسه في تلك القرية الصغيرة الوادعة، وذلك سنة ٩٥٥ هـ.

ومنذ ذلك التأريخ بدأ العدّ العكسي لحياته. يسجّل ابن العودي تلك الحقبة بقوله: «وهذا التاريخ كان خاتمة أوقات الأمان والسلامة من الحدثان» وقد لجأ الشهيد الىٰ منزل تلميذه المخلص في

(جزين)[١] بعيداً عن الانظار. جدير بالذكر انه وفي هذه الفترة الحرجة من حياته لم ينقطع عن التأليف والتحقيق والبحث، وكان انتاجه ابان تلك المدّة يمثّل اشعة الغروب في حياته الحافلة.

النهاية الدامية

لم يسجلّ التأريخ ومع الاسف تفاصيل شهادته الخالدة، غير أن قليلاً من التأمل في بعض الاشارات والحوادث يمكن أن يلقي بعض الضوء علىٰ خيوط مؤامرة مدبّرة لتصفية تلك الشخصية الفريدة، خاصّة اذا اخذنا بنظر الاعتبار مجمل الوضع السياسي آنذاك ونوع القاعدة الفكرية التي تستند اليها الدولة العثمانية، وتبنيها لأحد المذاهب الاسلامية لغايات سياسية بحتة[٢].

واذا اردنا أن نبحث في جذور القضية وخلفيات الحوادث التي أدّت الىٰ مصرع الشهيد، فينبغي العودة الىٰ حادث له دلالته الهامة

---

١ ـ احدىٰ قرىٰ الجنوب اللبناني مسقط راس الشهيد الأول (محمد بن مكي). ـ المترجم.

٢ ـ تتبنىٰ السياسة العثمانية المذهب الحنفي لرأيه المعروف في مسألة الخلافة. ـ المترجم.

وذلك عشية رحلته الىٰ تركيا للقاء بعض المسؤولين فـي عـاصمة الخلافة، وقد كان المتعارف آنذاك أن الذي يـتقدم بـطلب مـا الىٰ العاصمة أن يصطحب معه تعريفاً من قاضي بلدته يؤيد طلبه ذلك، وكان القاضي يومذاك (معروف الشامي) بصيدا فبعث الشهيد اليـه تلميذه ابن العودي لاحاطته علماً بعزم الشهيد علىٰ زياره العاصمة، فعرض القاضي علىٰ ابن العودي خدماته في كتابة تعريف للشـهيد وقد رفض الشهيد ذلك معتمداً كفاءته العلمية[1].

ولقد حزّ في قلب القاضي أن يتخطىٰ الشهيد منصبه كحلقة فـي جهاز اداري يحكم البلاد. وعدّ موقف الشهيد تحدّياً سافراً له، فبدأ يشعر بالخطر من وجود شخصية تعتدّ بنفسها وتفكّر بهذا الأسلوب، ومما زاد الطين بلّه هو عودة الشهيد من العاصمة ظافراً من دون أن يتملق هذا المسؤول الحكومي أو ذاك، معتمداً علىٰ قابلياته الفكرية وشخصيته العلمية.

وهكذا صمّم القاضي علىٰ تصيفة الشهيد والقضاء عليه، ولقد شعر

---

١ ـ شاع في تلك الفترة أن من يقدم طلباً للعاصمة عليه أن يـصطحب مـعه الهدايا لاصحاب النفوذ هناك ولعل رفض الشهيد تعريف القاضي جاء عـلىٰ اساس ذلك

الشهيد ـ فيما يبدو ـ بتوتر الأجواء، وقد اسرّ بذلك لتلامذته ومريديه.

وتوالت الحوادث بعد ذلك لتفجّر الموقف وتصعّد من حدّة الصراع، والرواية الوحيدة التي تشير الىٰ بداية النهاية هي كالتالي: ترافع الىٰ الشهيد خصمان فحكم لأحدهما علىٰ الآخر بما انزل الله، وبالطبع لم يرق ذلك للمحكوم عليه ولعلّ هذا الرجل[١] كان يدرك تماماً مخالفة الحكم للقاعدة الفكرية التي تسيّر شؤون الدولة والبلاد فانتهزها فرصة واسرع الىٰ القاضي (معروف الشامي) الذي بادر فوراً الىٰ استدعاء الشهيد واستجوابه.

ويدرك الشهيد خطورة الموقف فيقرر الاختفاء ريثما تهدأ الأمور.

علىٰ ان معروف الشامي قاضي صيدا لم يدع فرصة كهذه تفلت من يده، فيبرق الىٰ مركز الخلافة: «أنه وجد ببلاد الشام رجل مبدع خارج عن المذاهب الاربعة»[٢].

وهذه البرقية كانت كافية لاثارة مخاوف العاصمة. وهكذا

---

١ ـ وقد تكون الحادثة كلها ملفّقة للايقاع بالشهيد.

٢ ـ «شهداء الفضيلة» ص ١٣٥ نقلاً عن كتاب «أمل الآمل».

وصلت الأمور الىٰ قمّة الخطورة بعد أن ابدىٰ السلطان سليمان القانوني اهتماماً شخصياً بذلك؛ وهنا يرسل السلطان مبعوثاً خاصّاً لاستدعاء الشهيد، ويستشعر الشهيد الخطر القادم فيغادر البلاد سرّاً مع قافلة من الحجّاج، ويصل المبعوث الخاص البلاد للقاء الشهيد وابلاغه إرادة السلطان، ثم يتابع اقتفاء اثر الشهيد فيدركه وهو في طريقه الىٰ مكة المكرّمة.

ويدرك الشهيد انه لا مفرّ من التوجّه الىٰ العاصمة بعد أن وقف علىٰ رغبة السلطان سليمان القانوني في ترتيب لقاء فكري مع علماء وفقهاء القسطنطينية[١].

ويعرض الشهيد علىٰ المبعوث اداء مراسم الحج ثم التوجه الىٰ العاصمة، وتمّ الاتفاق علىٰ ذلك.

وتوجّه الرجلان صوب عاصمة الخلافة، ولعلّ حالة الشهيد كانت استسلاماً كاملاً لارادة الله، وربّما تذكّر في الطريق تلك الرؤيا التي رآها فيما مضىٰ وجلوسه الىٰ جنب الشهيد الاول محمد بن مكي الذي لقي مصرعه في ظروف مماثلة تقريباً.

---

١ ـ فأرسل السلطان رجلاً في طلب الشيخ وقال له: ائتني به حياً حتىٰ اجمع بينه وبين علماء بلادي فيبحثوا معه ـ شهداء الفضيلة ص ١٣٦.

ويسلك الشهيد في طريقه العاصمة نفس الطريق الذي سلكه من قبل، ويعاوده نفس الاحساس الغريب الذي خامره وهو يقترب من شواطئ المتوسط.

وهنا يحدث لقاء يدعو الىٰ التساؤل، اذ يصادفهما رجل يتوقّف عندهما ويدور بينه وبين مبعوث السلطان حـوار حـول شـخصية الشهيد، بعدها يقوم الرجل بتحريض المبعوث علىٰ قتل الشهيد في نفس المكان والتخلّص منه(١).

ولا يمكن قبول هذه الرواية على علاتها، فـالحادث يـنمّ عـن مؤامرة مدبّرة، خاصة وأن اصابع الاتهام تشير الىٰ الشخصية الثانية في البلاد وهو الصدر الاعظم (رستم باشا) فقد وردته تقارير سرّية تفيد بأن الشيخ زين الدين يعمل ناشطا علىٰ نشر التشيع، فأمر بالقاء القبض عليه وارساله مخفوراً الىٰ القسـطنطينية (اسـطنبول)، ولعـلّ الاسراع في تصفيته علىٰ هذا النحو المأساوي قد يعود الىٰ تخوّف

---

١ ـ فلمّا فرغ من الحج سافر معه الىٰ بلاد الروم «تركية» فلما وصل اليها رآه رجل فسأله عن الشيخ فقال: رجل من علماء الشيعة الامامية اريد ان ارسله الىٰ السلطان فقال: أوَ ماتخاف ان يخبر السلطان بأنك قد قصرت في خدمته وآذيته وله هناك اصحاب يساعدونه فيكون سبباً لهلاكك، بل الرأي ان تقتله وتأخذ برأسه الى السلطان ـ شهداء الفضيلة ص ١٣٦ بالاستناد الىٰ امل الآمل.

رستم باشا من تأثر السلطان سليمان القانوني بافكار الشهيد وربّما لَمَس الصدر الاعظم ذلك من رغبة السلطان في ترتيب حوار فكري بين الشهيد وعلماء العاصمة[1].

ومهما اختلفت الروايات في الاسباب التي ادّت الىٰ مصرع الشيخ زين الدين الاّ انها تؤكد جميعاً ـ بما لايدع مكاناً للشك ـ أن العاصمة العثمانية كانت تعتبر الشهيد خطراً يهدّد كيانها ويعرّض امنها للخطر، خاصّة وأن سلاطين آل عثمان يتوجّسون خيفة من جارتهم في الشرق.

وهكذا ذهب الشهيد ضحية مؤامرة قذرة دون مراعاة لابسط

---

١ ـ ينقل (حسن بيك روملو) في كتابه (أحسن التواريخ): (في سنة ٩٦٥ هـ. وفي أواسط سلطنة الشاه طهماسب الصفوي استشهد حاوي المعقول والمنقول جامع الفروع والاصول الشيخ زين الدين العاملي وكان السبب في شهادته أن جماعة من السنيين قالوا لرستم باشا الوزير الاعظم للسلطان سليمان ملك الروم ان الشيخ زين الدين يدعي الاجتهاد ويتردد اليه كثير من علماء الشيعة ويقرأون عليه كتب الامامية وغرضهم بذلك اشاعة التشيع فأرسل رستم باشا الوزير في طلب الشيخ زين الدين وكان وقتئذ بمكة المعظمة وذهبوا به الى استنبول فقتلوه فيها من غير أن يعرضوه علىٰ السلطان) / اعيان الشيعة ج ٣٣ / ٢٩٢.

الحقوق في حرّية الرأي. ويعدّ قتله بهذه الطريقة المـؤسفة امـتهاناً لحرّية المسلم وانتهاكاً صارخاً لحرمة الاسلام.

بخطى هادئة كان يمضي صوب نهايته الدامية يتأمل امواج البحر الغاضبة، في لحظة الوداع، ويدرك الرجل الذي جاوز الخمسين من عمره ان شمسه هي الأخرىٰ تهوي باتجاه المغيب، وقد ازفت ساعة الرحيل، فالعيون التي ترقبة تبرق حقداً وسيف التآمر ينتظر اللحظة الرهيبة والبحر لايملكَ غير امواجه الغـاضبة. ويـتقدّم الشـهيد الىٰ مصيره بخطى مطمئنة..

يصلّي ركعتي الشهادة... يتوضأ بالدم... ويحلّق باتجاه السماوات مخلّفاً وراءه رأساً مقطوعاً وجسداً تغمره الأمواج.

وينطلق القاتل حاملاً مـعه الرأس الذبـيح ويسـتنكر (سـليمان القانوني) الجريمة فيصدر أمره باعدام القاتل[١].

---

١ ـ الذي قتل الشهيد في مكان من ساحل البحر وكـان هـناك جـماعة مـن التركمان فرأوا في تلك الليلة انواراً تنزل من السماء وتصعد فدفنوه هناك وبنوا عليه قبّة، واخذ الرجل رأسه الىٰ السلطان فانكر عليه وقال امرتك أن تأتيني به حياً فقتلته، وسعىٰ السيد عبد الرحيم العباسي (من اهل الفضل التـام مـؤلف كتاب معاهد التنصيص في شرح ابيات التلخيص) في قتل ذلك الرجل فـقتله السلطان / المصدر السابق.

لقد اراد جلادّوه أن تغيب شمسه الىٰ الابد فاذا هي تلوح مشرقة بعد حين.

مرثية الشمس

هــذي المــنازل والآثــار والطــلل
مــخبِّرات بــأنّ القــوم قــد رحــلوا
ســاروا وقــد بــعدت عــنّا مــنازلهم
فــالآن لا عــوضٌ مــنهم ولا بــدلُ
فســرت شــرقاً وغــرباً فــي تــطلّبهم
وكــلما جــئت ربــعاً قــيل لي رحــلوا
فــحين ايــقنت ان الذكــر مــنقطع
وانــه ليس لي فــي وصــلهم أمــلُ
رجــعت والعــين عــبرىٰ والفــؤاد شــجٍ
والحــزن بــي نــازل والصــبر مــرتحلُ
فــقلت مــالكمْ لا خــاب فــالكمُ
قــد حــالكمُ والضــرّ مشــتمل
هل نالكم غــير بــعد الالف عــن وطــن
قــالوا فــجعنا (بــزين الديــن) يــا رجــل

اتـــىٰ مـــن الروم لا أهــلا بـــمقدمه

نـــاعٍ نـــعاه فـــنارُ الحـــزن تشـــتعل

فـصار حـزني انـيسي والبكـا سكـني

والنــوح دأبـــي ودمـع العـين يـنهمل

لهــفي له نـــازح الاوطـــان مـــنجدلاً

فـــوق الصـعيد عـليه الـترب مشـتمل

اشكـــو الى الله رزءاً ليس يشـــبهه

الا مصاب الاولى فـي كـربلا قـتلوا(١)

***

طـــرق المســـامعَ طـــارق لا يســـمع

فـــالقلب مـــن تســـماعه مـــتوجّعُ

والروح تـــــزهق لا تـــطيق ســـماعه

والنـــفس مـــن اســـماعها تـــتقطع

نـــعي الامـــام العـــالم الحـــبر الذي

بـــعلومه ســـمت الشـــريعة مـــهيع

---

١ ـ ابن العودي.

رب التقىٰ كنز الحجىٰ علم الهدىٰ
لمن اهتدىٰ والمقتدى المتورع
لهفي عليك وقد غدوت مكبلاً
بالقيد لا حام ولا مستشفعُ
ذلاًّ تقاد وانت من اولي الحجىٰ
حقاً أعزُّ ملوكها والارفع
ما للشوامخ لاتمور بارضها
غضباً وما للشهب لاتتقشعُ
مستعظم مور الجبال لفقد (زين
الدين) لا بل سجها متوقع
يا ايها الحبر الجليل ومن له
الفضل الجزيل ووصله لا يقطع
يا أيها العلم الذي بظهوره
اهل الفضائل يقتفيه ويتبع
وانعم وانت لدىٰ الآلـه منعّم
حيّ ومن ألطافه متمتع
أأسرُّ في خطب اصابك اذ به
حُزْتَ الشهادة، أم لفقدك اجزع

لله اي مـــعظم قـــد صـــغّروا
أو ذي حـــفاظ حـقه قـد ضـيّعوا
مـا كـان ظـنّي والظـنون كـثيرة
ان الردىٰ لك عَـــن قـريب يـصرع
مـا كـان اخـوفني عـليك مـن الردىٰ
واليـــوم قـــلبي آمـن لا يـفزع
قـد كـنت آمـل ان دهـرى يـرعوي
بـــعد الشـموس وشـملنا يـتجمعُ
فـاليوم قـد خـاب الرجـا وتـنغّصت
لذات عـيشي حـيث فـات المـطمع
لو كـــنت ذا قـــبر يُـزار ودونـه
بـيض المـواضـي والعـوالي شـرّع
لقـــصدته ولثـمت تـرب ضـريحه
وقـــطعت بـيداً لا تكـاد تـقطع
هـــذا قـليل مـن عـبيد مـودّة
والحـرّ يـرضىٰ بـالقليل ويـقنع(١)

---

١ ـ احد تلامذة الشهيد السيد رحمة الله النجفي المعروف بالفتّال.

المصادر

١ ـ الدر المنثور ، ج ٢ ، على بن محمد بن الحسين بن زين الدين «الشهيد الثاني».

٣ ـ امل الآمل ، ج ١ ، الشيخ الحر العاملي.

٤ ـ اعيان الشيعة ، ج ٧ ، السيد محسن امين العاملي.

٥ ـ مستدرك الوسائل ، ج ٣ ، ميرزا حسين نوري طبرسي.

٦ ـ سفينة البحار ، ج ٢ ، الشيخ عباس القمي.

٧ ـ مفاخر الاسلام، ج ٤ ، علي دواني.

٨ ـ شهداء الفضيلة ، العلامة الاميني.

٩ ـ آداب التعليم والتعلم في الاسلام ، دكتور سيد محمد باقر حجّتي.

١٠ ـ مقدمة شرح اللمعة الدمشقية، سيد محمد كلانتر.

١١ ـ مقدمة «منية المريد»، رضا مختاري.

١٢ ـ الذريعة، الشيخ آقا بزرگ الطهراني.

١٣ ـ رياض العلماء، ميرزا عبد الله افندي اصفهاني.

١٤ ـ الفوائد الرضوية، الشيخ عباس القمي.